عنترة بن شدّاد

١٠

دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

عنترة بن شدّاد

١٠

تأليف

حسن جوهر　　محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطّار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

ركب شيبوب متن الريح إلى ديار بنى قضاعة ليخلص من الأسر عمرو بن مالك أخا عبلة وغيره من الأسرى ، وفى غلس الظلام دخل الديار متنكراً ، وارتقب غياب العبيد المكلفين بحراستهم فى نوم عميق ، وفك الأسرى جميعهم وأركبهم جياداً من جياد الأعداء ، وقلدهم عُدداً حربية من عُددهم وفر بهم لا يلوى على شىء ، وبعد أن أخذوا سبيلهم فى القفار استيقظ أحد العبيد فألفى المعتقل خالياً من الأسرى ، فصاح فى بقية العبيد ، فنهضوا مستغيثين ، واجتمع الفرسان ، وركبوا خيلهم ، متقلدين سيوفهم ورماحهم ، وأسرعوا خلف الأسرى ليدركوهم قبل أن يعتصموا بالهرب ناجين .

ولما شعر الأسرى بهم من ورائهم وقفوا لقتالهم ، وقامت بين الفريقين حرب قاسية ، وكان شيبوب فى منأى بعيد عنهم يرتقب المصير ، وبينما هو كذلك إذ أحس قدوم فرسان فخف إليهم ، وكانوا العشرة الذين أرسلت غمرة معهم عنترة ، ليحبسوه فى الديار حتى تنتهى من حرب دريد ومعونة أبيها وقومها ، فعجب أن رأى أخاه عنترة مأسوراً معهم

ففكر فى تدبير خطة يخلصه بها من الأسر، فادعى أنه من بنى قضاعة وقال للذين يحرسون عنترة: أدركوا أيها الفرسان إخوانكم فقد هرب الأسرى منهم ولحقوا بهم ، والفريقان الآن فى قتال عنيف . فوكل الفرسان حراسة عنترة إلى واحد منهم ، وذهب التسعة ليعينوا زملاءهم وينصروهم على الأسرى .

ثم التفت شيبوب إلى عنترة وصك وجهه قائلا : لقد أرملت النساء ، ويتمت الأطفال وخربت الديار ، فلا بارك الله فيك ، ولا جعلك تنشق نسيم الحياة !

والتفت إلى الفارس العاشر وقال : أسرع أنت إلى صحبك وساعدهم بسيفك وشجاعتك ، واترك هذا العبد اللئيم فإنى به زعيم .

فخدعه هذا الكلام ، وأسلمه عنترة وأسرع هو إلى صحبه ؛ ثم قام شيبوب إلى أخيه عنترة وفك وثاقه وخلى سبيله ، وقال : عزيز على أخيك أن تكون أسيراً ولا يعينك ، كما عز عليه أن يضربك ويشتمك وأنت أحب إليه من نفسه ، ولكن رأيت خديعة الفارس لا تتم إلا بذلك ، فمعذرة منى إليك ، وهيا بنا إلى خلاص العباس بن مرداس وعمرو بن مالك ومن معهما ، حتى نسرع إلى دريد فنكشف عنه ما أصابه من الضيق فى حرب بنى قضاعة .

وبعد برهة من الزمن كان عنترة عند الأسرى ، فصاح فى الأعداء صيحة زلزلت أفئدتهم ، وأعمل فيهم سيفه ، فقتل من قتل ، ولاذ باقيهم إلى

الديار هاربين ، ثم ركبوا الجياد وأسرعوا إلى دريد .

وبينما هم سائرون أحس شيبوب حركة وصوتاً فقال لعنترة : تعال معى نسلك طريقاً غير هذا ، حتى لا نلتقى بالقادمين ، فسيعوقونا عن دريد ونصرته . وترقب شيبوب هذا القادم فإذا به ذو الخمار ، يسير به جواده وهو يقول شعراً معناه الألم من أسر عنترة له ، وكله غيظ وحنق منه ، وأنه ما حارب فى جانب بنى قضاعة ضد دريد صهره إلا للانتقام منه ، فقال شيبوب لعنترة : يابن أم ! لقد سلمك الله من انتقام هذا اللئيم ! ثم أسرع شيبوب إلى ذى الخمار فنخس فرسه نخسة أليمة أزعجتها فوثبت به وثبة فاجئة ألقته بها على الأرض ، فخف شيبوب ومن معه إليه وأوثقوه بالحبال وساقوه معهم أسيراً ، وقال له عنترة : لولا ما أكن لدريد من الوفاء والحبة لجعلتك طعاماً للوحوش .

* * *

اطمأن دريد بعد انتصاره على بنى قضاعة ، ولما أقبل الليل وكل حراسة الجند إلى نفسه وإلى عنترة ، ولكن ذا الخمار — الذى أعتقه دريد من أسره . ورضى بذلك عنترة إكراماً لقرابته من دريد — أقسم على حماه دريد أن يستريح وأن يقوم هو بدلا منه بحراسة الجند مع عنترة ؛ ورغب ذو الخمار فى ذلك لشر يضمره ، وخيانة لعنترة ينوى تنفيذها . ولما سكن الليل وهجع الجند نهض ذو الخمار إلى غمرة فحل وثاقها ، وأسر إليها

أن تساعده فى الفتك بعنترة وقتله ، وأمرها أن تفك من الأسر أباها ومن تشاء من أسرى قومها ، ثم ذهب هو إلى عنترة ليختلس حياته ويقتله ، وهو فى غفلة من نعاسه .

وبان لهم عنترة على جواده ، وهو تعب من كثرة السهر ، ويطرد النوم عن عينيه ، فلما قربوا منه صاح فيهم قائلا : من القادم ؟ !

فقال ذو الخمار : على رسلك يا أبا الفوارس ، فأنا من تعرفه ولا تنكره ، ضقت بفراقك ذرعاً ، فجئتك للتحدث معك ، وقضاء الليل فى تسليتك .

فانطلى على عنترة محاله ومكره ، وشكر له جميل صنعه ، ثم نظر من خلفه غمرة ، فأنكرها وسأل ذا الخمار عنها ، فقال : هذا ابن عمى رغب فى صحبتى .

جلس ذو الخمار إلى عنترة وأخذ يحادثه ، وانتهزت غمرة فرصة غفلته عنها بالحديث ، فجردت سيفها وضربت عنترة ضربة شديدة ، فوقع السيف على درعه ولم يصبه بأذى ، فأدرك عنترة غدرهم ، وفزع إلى سيفه ، وهم أن يشقها به نصفين ، فطعنه ذو الخمار برمحه فأصاب درعه ، وانكسرت إلى ثلاث قطع ، وهمّ عنترة أن يضربه بسيفه فاعترضته غمرة ، وهمّ ذو الخمار به فعثر به جواده ، وحيل بينه وبينه ، وكان ذلك دفاعاً من الله عن عنترة لإخلاصه ووفائه .

وكان الجند قد انتبهوا على صرخات عنترة وحركاته مع غمرة وصاحبها الخائن ذى الخمار ، فخاف هذا وأخذ غمرة ، وأوغلا فى الصحراء هاربين .

وسارع دريد إلى الوقوف على جلية الأمر ، ولما عرف الحقيقة من عنترة استعظم أن يحسن إلى غادر مثل صهره ، بتسريحه من أسره تقديراً لقرابته ، وأقسم أن يقتله إن وقع فى يده .

ضاق دريد ذرعاً بصهره وأعدائه ، فقطع رقاب من بقى من أسراهم ، وكان منهم المثعنجر لأن أخته لم تتمكن من إطلاقه ، إذ كان عنترة قد سلمه لخفاف بن ندبة ، فكان يحرسه بنفسه ولا يفارقه ليلا ولا نهاراً ؛ ثم برم بهم هذا المكان ، فارتحلوا راجعين إلى ديارهم .

وحينما كانوا عائدين قابلهم خمسة من فرسان بنى هوازن وجشم وسليم وغزية ، المقيمين فى أرض دريد ، فسألهم عن حال القوم ومجيئهم إليه مسرعين ، فقالوا : خرجنا إليك لنخبرك ما حل بالديار ، فقد دهمنا بنو عبس وعدنان وفزارة وذبيان فى عشرين ألف مقاتل فاتك ، فنهبوا أموالنا ، وأسروا عيالنا ، وشردوا فرساننا ، وكان ممن أسر خالد أخوك وعبلة زوج عنترة ومسيكة زوج مقرى الوحوش .

فكظم دريد غيظه وقال : سنجازى بنى فزارة شر الجزاء ، وأما بنو عبس فأمرهم إلى حاميتهم عنترة .

فقال عنترة : ولن أعد بنى عبس من الآن إلا أعداء ، وأدع أمرى

معهم إلى المستقبل القريب ، ثم ارتحلوا إلى ديارهم .

وكان سبب إغارة بنى عبس على منازل دريد فى غيبته أن حصن بن حذيفة والربيع بن زياد جعلا يسعيان بين قيس وعنترة ، حتى كره قيس لقاءه ، وتمنى فناءه ، فألف جيشاً عدته عشرون ألفاً وذهبوا إلى منازل دريد ففعلوا بها ما قرأته فى نبأ الفرسان الخمسة ، وكان قد سار الربيع بن زياد ، ومعه أحد أعمام قيس وحصن بن حذيفة ، وعشرة فرسان من سادات بنى عبس وفزارة إلى أرض العراق يستنجدون بالنعمان ، ويستغيثون به من عنترة .

كان وقع هذا النبأ على دريد أليماً ، ولكنه دأب على السير حتى كان فى دياره ، وهناك جعل يسلى قومه ويعدهم أنه سيغزو الأعداء ويرد الأموال والأسرى ، أما عنترة ومقرى الوحوش فقد صبرا على أحر من الجمر ، ولم يذق أحدهما النوم إلا غراراً لليلتين متواليتين ، وفى الليلة الثالثة استفزهما الغضب ، واستعرت فى صدريهما نار الحمية ، فقال عنترة : لا صبر بعد الآن على هذا الهوان ، وما كان لنا أن نعتمد على غيرنا ، فهيا بنا إلى خصومنا ، نرد حقوقنا بأيدينا ، ونؤدبهم بسيوفنا .

فقال مقرى الوحوش : إنى معك أينما كنت .

وفى مائة من أشداء بنى قراد خرجوا فى ستر من غلس الليل ، ولم يعلم بخروجهم أحد إلا شداد والد عنترة . ولما أجهدهم السفر نزلوا فى مكان

يستريحون فيه ، ولما هموا باستئناف سيرهم ، كان دريد قد أدركهم فى عشرة آلاف فارس ، فعتب دريد على عنترة خروجه وحده ، فاعتذر بأنه لا يحب أن يكلفه مشقة القتال ، ما دام قادراً على أن يذل كل جبار عنيد ؛ وسار جميعهم إلى ديار بنى عبس ، وما رأتهم عيون قيس المنبثة من حول الديار وعرفوهم حتى خفوا إلى قيس بن زهير ، وألقوا إليه نبأ قدومهم ، فاضطرب قيس وقال : غلبنا ورب الكعبة ، فإن عنترة فارس لا يقهر ، وليس بناج منه أنثى ولا ذكر .

وقال سنان : لا ينجينا منه إلا المكر والخديعة .

فقال قيس : وكيف يكون ذلك ؟ فقال :

حينما ينزل جيش عنترة بديارنا ، نرضيهم برد الحريم والعيال إليهم من غير قتال ، وتخرج إليه حرائر النساء والفتيات من الإماء ، يشرقن فى ملابسهن الزاهية الجميلة ، يضربن على الدفوف ، ويعزفن بالمزاهر ، ويرفعن أصواتهن بالغناء فى توقيع شجى ونغم ساحر فاتن قائلات :

عاد حامينا إلينا   سالماً بعد البعاد
فاحمدوا الله جميعاً   واشكروا رب العباد

ثم أتبعهن أنا وأنت إلى لقائه ، فى حفاوة بالغة ، وفرح عظيم ، ونقول : لقد ردت إلينا بعودتك عزتنا ، وحمايتنا من كل مكروه يراد بنا ، بعد أن كنا بغيبتك كالسارى فقد نور البدر وهدى النجم ، وكزغب

الحواصل من الأولاد غاب كافلهم وراعيهم ، وما طلبناك فى منازل دريد إلا لنستغفرك من خطايانا ؛ فلما لم نجدك فيها ، أخذنا الأموال ، وأسرنا عبلة وغيرها من الحرائر ، حتى نكرهك على غزونا ، وحينئذ نلقاك بما لقيناك به الآن . وإذ ذاك يصبح عنترة بين أمرين : إما أن يخدع ويصدق فيأوى هو وجنده إلى ديارنا ، وفى غسق الليل تهجم عليهم فرساننا فى المضاجع ، وتفتك بهم على غرة ، وننقضى على عنترة ونخلص من شره ، وإما أن يستحيى منا ويخجل ، ويختار العكوف على غضبه ، ورد الأموال والنساء إليه من غير أن يشهر سلاحاً ، فنقول له : أموالنا ونساؤنا وأنفسنا ملك يمينك ، وحينئذ يأخذ أمواله ونساءه ويرجع دون قتال ، فإذا ما جمعنا جموعنا وجاءنا مدد الحلفاء والأعوان والملك النعمان ، طلبناه حيث يكون ، وسقيناه كأس المنون . فاطمأن قيس إلى ما سمع ، وقال : دبر هذا الشأن كما ترى .

ولما رأى عنترة من ذلك ما رأى ، أصبح فى حيرة لا يدرى مداها ، ولكن أخاه شيبوباً لم يغره هذا ، فتقدم إلى سنان وقال : يا أخا الكذب والضلال ، وحليف المكر والخديعة ! أهانت عليك عقولنا ، حتى تفتنها عن رشدها بزخرف من القول ، ظاهره فيه الرحمة ، وباطنه من قبله الغدر والخديعة ؟ ! لقد ادعيت أنكم أخذتم نساء عنترة وأمواله ، لتتخذوا من ذلك وسيلة قاهرة إلى أن يعود إليكم ، وما تقول فيما فعلتم برجال

دريد بن الصمة وأمواله ونسائه ودياره ، وليس لكم فيه حاجة ، ولم يجترح إثماً أو خطيئة ؟ ! ! إنك لغوى مضل مبين .

فقال سنان : ولقد أرغمنا دريداً بأسر نسائه على الحضور إلينا ، لنكرمه فى ديارنا ، لقاء إكرام عنترة فى دياره ، اعترافاً منا بالجميل من فعله ، وتوثيقاً للعلاقة الطيبة بيننا وبينه ، وأما رجاله فلم نتعرض إليهم بأذى ، ولكنهم أدركونا فى الطريق ، فنشب قتال بيننا وبينهم ، وقتل منا وقتل منهم ، تنفيذاً للمقدور الذى لم نكن نعلمه ، ولم يخطر لنا على بال ، والدليل على أننا نحب أن يكون دريد أخاً لنا ، ونبغض من يناله بمكروه ، أننا لا ندعه يعود إلى أرضه ، حتى نعطيه دية من قتل من رجاله ، ونعفو نحن عمن قتل من رجالنا .

سمع دريد هذا جميعه ، فكظم غيظه ، وأشرقت شفتاه بابتسامة ساخرة ، واعتقد أن القوم عجزوا عن القتال ، فلاذوا بالمكر والاحتيال ، وقال لعنترة : لو أن قوماً غير قومك فعلوا بنا ما فعلوا ، لجعلت الغراب ينعق على أطلالهم .

فقال عنترة : وإن قومى ليستحقون الهلاك ، ولكن من ألقى سلاحه ، حرم قتله ، والتفت إلى سنان وقال له : أخبر صاحبك قيساً أن يبعث الأموال والحريم على آثارنا ، وأمر دريد الرجال أن يرتحلوا ، وما نزلوا بغدير فى طريقهم للراحة ، حتى كان قيس قد أرسل إليهم ما كان قد

أخذه ، وبعد أن استراحوا استأنفوا سيرهم ، وجعلوا يسيرون حتى طلع عليهم اليوم الخامس ، فرأوا طلائع غبار من خلفهم ، وطلائع غبار من قدامهم ، فوقفوا وثبتوا فى مكانهم حتى يتبين لهم أمر هذا الغبار .

كانت هذه الجيوش للنعمان وقيس بن زهير ، وكان للربيع بن زياد أعظم الأثر فى حمل النعمان على إرسال جنده ، وكان عنترة ومن معه يسمعون أصواتاً من هذه الجيوش تنذره بالهلاك ، وأنهم ما أعطوه أمواله ونساءه إلا مكراً وخديعة ، حتى يأتيهم جند النعمان .

قال عنترة لدريد : اليوم يوم محنة ، وله ما بعده ، فإن حرصنا على الموت منحنا الحياة ، وفزنا فوزاً عظيما .

وأمر الملك الأسود الجنود ألا تقاتل ، حتى يرسل إلى دريد يدعوه إلى الطاعة ، وتسليمه عنترة ، ثم كتب إليه يقول :

أرسلنى أخى النعمان بهذه الجيوش المحتشدة ، لأصلح الفساد فيكم ، وأقضى على البغى منكم ، وأرد عنترة عبد بنى عبس إلى طاعتهم ، وأرسلك إلى أخى ، لتقر بالإذعان له ، والخضوع لسلطانه ، فإن استجبت إلى ذلك، نجيت نفسك وقومك من غضبنا ،ووقيتهم سيوفنا ، وإلا فقد أعذر من أنذر .

ناول رسول الملك الأسود دريداً تلك الرسالة ، فقرأها على عنترة ، فالتفت عنترة إلى الرسول غاضباً قائلا : لو لم يكن للرسول حرمة فى ذاته ،

لكنت أول من فتكت به ، فارجع إلى صاحبك وبلغه أن جيوشه التى يعتز بها فى يد عنترة إذلالها ونسخ وجودها ، وأن النعمان الذى يتطاول علينا بسلطانه ، أحقر من دابة سائمة ، وفى القريب العاجل ترى دريداً جاثماً على ملكه ، يقبضه ويبسطه ، بأمره ونهيه ، وأما بنو عبس فسأريهم من بلائى ما يجعلهم مثلا وعبرة ؛ ثم ضرب الرسول على وجهه ، وأمره أن يحدث صاحبه ، بما وعته أذنه .

أذن مؤذن الحرب بين الفريقين ، وأكلت نيرانها كثيراً من فرسان الجيشين ، غير أنها نزلت على جيش النعمان كأنها الماشية ، ورأى الملك الأسود من دريد وعنترة ما لم يكن يتوقعه .

وفى منتصف الليلة الأولى من بدء المعركة ، سمع عنترة فى جيش الأسود جلبة وحركة ، فتبينها خشية أن يكونوا قد خالفوا العرف ، وأرادوا أخذهم ليلا على غرة ، فوجد الجيش قد هب للرحيل ، وتسلل فى سبيله من الصحراء راجعاً ، فعجب دريد وعنترة ، أن رأيا هذا الجيش على كثرته يرتحل فجأة ، وقال دريد : ومن الصواب حينئذ أن نرجع بجيوشنا إلى ديارنا نمدها بما نستطيع من فرسان وعتاد ، لنكون عند اللقاء أكثر عدداً وأشد قوة ، ونادى فيهم منادى الرحيل ، ثم جعلوا يقطعون الفيافى إلى ديار هوازن ، وهم فى عجب عظيم من ارتحال الأسود المفاجئ .

٢

كان سنان قد أرسل كتاباً إلى الحارث الوهاب ملك الشام ، يحمله فيه على غزو ديار بنى عبس ، بغية قتل حاميتهم عنترة وقيس بن زهير ووقوع الفتنة بينهما ، وكان سنان يبغى الانتقام منهم ، إذ كان يضمر العداوة لهم ، وكان قد حلف أن يسير إليهم بجند الشام ، ويسبى النساء وييتم الأطفال ، ليقيم جاهه ويعظم شأنه عند صاحبه ملك النصرانية .

وصل رسول سنان إلى الحارث فسأله عن مولاه فقال : إنه فى انتظارك ، لأن أعداءك دب فيهم دبيب الخلف والشقاق ، وقد عول سيدى على فنائهم والإقامة عندك ؛ فاستراح الحارث لما سمع ، وسار فى جموع عدة ملأت أرض الشرّبة وقيل إنهم شغلوا بخيامهم ومنازلهم أرض بنى عامر إلى أرض بنى فزارة إلى وادى اليعمورية إلى وادى الغزلان ، ونزل الحارث على رأس العلم السعدى ، وكان نزوله بعد رحيل قيس وجيوش النعمان بيوم واحد ، فأمر بأسر من فى ديار بنى عبس ، وجعل على الحريم والأموال جماعة من فرسانه ، وما استطاع بنو عبس أمام هذه الجموع الحاشدة شقاقاً أو عصياناً .

استقر بالحارث مقامه ، فأمر أن يسأل الأسرى عن قومهم أين

ساروا ؟ ليسير فى أثرهم ليدركهم ويقضى عليهم ، ويرسل إلى بنى قضاعة جنوداً يأتونه بهم أذلة خاسئين . فقالوا : إنهم ساروا خلف عنترة مع جيوش النعمان ، وقال دابق بن حسان قائد جيوش الحارث : أرى أن نلبث فى منازلنا هذه ، حتى تأتينا أخبار عنترة ، وأخبار أعدائه الذين يقاتلونه ، ونعرف الرابح منهم والخاسر ، وما دام جميعهم أعداءك ، فلنتركهم يقتتلون ، ليضعف بعضهم بعضاً ، لأن من مات منهم ارتحنا منه .

فقال الحارث : ذلك رأى حسن ، ولكن أرسل إلى بنى غطفان من يأتينى بهم أسرى طائعين . فأرسل إليهم عشرة آلاف فارس بقيادة مبادر ابن غياث .

انفلت من بنى عبس فارس اسمه سلامة بن ناج ، وذهب إلى بنى عبس الذين يحاربون عنترة ، وأخبرهم بما جرى فى ديارهم وأموالهم وعيالهم ، فانفضوا من حول عنترة ، وابتأس قيس حتى كاد يغشى عليه ؛ وقال : ما عادينا عنترة إلا حل بنا من الوبال ما أرغمنا على التودد إليه والاستنجاد به .

أما سنان فإنه اجتمع بحصن بن حذيفة وقالا : قد انقضت أيام بنى عبس وعنترة ، وطويت صحف وجودهم ، وانقشعت عنا بفناء عنترة سحب الهموم والأحزان .

رجع قيس وبنو عبس وحلفاؤهم وساروا حتى كان بينهم وبين أرض الشربة مسيرة يوم ، فقال قيس : استعدوا للقتال ، وأبشروا بالنصر العظيم على جيوش الشام ، وأنتم أشد منهم قوة وبأساً ، ولو كان لهم قوة كقوتكم لطلبونا حيث كنا ، ولست بخائف إلا من رجوعهم إلى ديارهم ، ومعهم السبايا والأموال .

وكان الحارث قد أرسل جاسوساً إلى بنى عبس ليجيئه بأخبارهم ، فلما رجع إليه أخبره أنهم تركوا قتال عنترة ، وانقلبوا إلى ديارهم يدافعون عنها ويقاتلونك . فأمر الحارث أن تسير الجيوش إلى لقائهم وهم راجعون .

ولما هم بنو عبس بالرحيل ، والمسير إلى أرضهم رأوا غباراً سد الأفق ، وما لبثوا أن رأوا جموعاً لا تحصى وجنوداً ملئوا الأودية والآكام ، وكان الحارث طامعاً فى نصره ، فبادر بالقتال ، واشتعلت نيران الحرب فى الفريقين ، فودعت الأرواح أبدانها ، وفارت الدماء من عروقها ، وتعثرت الخيل بجماجم القتلى ، وطعن حصن بن حذيفة أخا قيس فقتله ، وبلغ بنو فزارة المنى ، وذاق بنو عبس مرارة الهزيمة والأذى ، واندفقت سيول الأعداء على جيوش النعمان فأغرقوهم فى دمائهم ، وكان يوماً مشئوماً ، صعدت فيه الأرواح وطرحت الأجسام على البطاح ، وقتل من أعمام قيس ثلاثة ، ومن إخوته اثنان ، ومن بنى فزارة ثلاثة ، ويئس قيس وأخوه الحارث من النجاة والنصر ، ففروا إلى البيداء فراراً ، وعُرِض على الحارث

الوهاب الأسرى والأموال ، فقال لحلفائه : أما الأموال فلكم ، فليس لى فيها حاجة ، وأما الأسرى فدعوهم لى أريق دماءهم ، وأريح الناس من شرهم ، فقال وزيره ، وكان عاقلا ، واسمه جبير : كن رفيقاً رحيما بأسراك واصنع بهم ما يزيد فى مجدك وعلاك ، ولا تنس أنك أرسلت إلى بلاد الحجاز جيوشاً جرارة ، فما رجع إليك أحد ، وقتل ابنك بدر النصرانية ، وقد حط هذا من قدرك فى الشام ، وأرى أن ترسل الأسرى فى عشرة آلاف إلى الشام ، ليعلم قومك أن لهم ملكاً قادراً على الانتقام وتحقيق ما يريد ، ويا حبذا لو رجعت ومعك عنترة ومقرى الوحوش وبنى عامر ، وإذا رأى الملك قيصر هؤلاء الأسرى كنت عنده أقوى الملوك ، فأمدك بجنوده ، وجعلك ملكاً على البلاد ، وأصبحت الأرض كلها لبنى غسان ، وإن هزمت النعمان ، وخربت بلاد النيران ، ورفعت كلمة المسيح ، بقى ذكرك ما بقى الزمان ! فاطمأن الحارث لوزيره وقال له : دبر أنت الأمر كما تشاء . ثم أحضر سناناً وسادات بنى فزارة فمنحهم العطايا ، وأمرهم أن يبعثوا أهلهم مع الحماة من الفرسان إلى أرض الشام ، وقال : إذا رجعنا إلى الأوطان منحتكم أرض حوران ، فقال سنان : ذلك ما كنا نبغى ، وقد بلغنا من بنى عبس ما كنا نشتهى ، وعسى أن يقع عنترة فى أيدينا ، لتنشرح بذلك قلوبنا ، فقال الحارث : أبشروا بما تشتهون ، فإذا وصلنا إلى منازل دريد محونا آثار من فيها من بنى هوازن وجشم ودبرنا الأمر لأسر عنترة ،

وسقناه بين أيدينا أسيراً ذليلا .

فقال سنان : لقد أصبحنا منكم ، وعلينا أن ننصح لكم ، وأرى أن نسير إلى بنى عامر ، ونقضى عليهم قبل أن يصلهم خبر هذه المعركة ، فإن إغفالهم يتعبنا ، ففيهم ملاعب الأسنة ، وهم لا بد أن يشدوا أزر عنترة ودريد ، لأن بينهم نسباً .

فقال الحارث : ذلك ما يكون ، وإذا رجعت سرايا بنى غطفان انقلبنا إلى بنى عامر ، ووضعنا فيهم سيوفنا . وبعد قليل أقبلت سرايا بنى غطفان ومعهم الأسرى والأموال .

فقال الوزير : اجعل أسرى بنى غطفان مع أسرى بنى عبس وحلفائهم ، وابعثهم إلى الشام ، فقال له الحارث : افعل ما شئت .

جمع الوزير الأسرى وعول على المسير ، وإذا رسل خمسة قادمون إلى الحارث ، وناولوه كتباً من قيصر الروم ، ففضها وقرأها فوجد فيها : اعلم أيها الملك المجاهد فى سبيل المسيح أنه بعد أن أذنت لك بالمسير إلى أرض الحجاز جاءتنى مراكب لا يحصى عددها ، وهى مملوءة بغزاة الإفرنج ، وقد يزيد عددهم عن مائتى ألف ، وقائدهم الخيلجان الذى فتح جزائر البحار ، ومرادهم نصرة المسيحية ، وتدمير بيوت النيران ، وأريد منك أن تسير بجنودك إلى الكوفة لتكفينا شر النعمان .

فرح الحارث بذلك وأنعم على الرسل وقال لوزيره : تمهل حتى يأتيك

أسرى بنى عامر ثم ارحل بالأسرى جميعهم إلى الشام . وعجل الحارث بالمسير فى خمسين ألفاً إلى أرض بنى عامر ، وهناك دهمهم بغتة ، وضيق الآفاق عليهم ، وأحل بهم النكال والوبال ، وكان بنو عامر اثنى عشر ألفاً فقتل منهم ثلاثة آلاف ، وهرب الباقون إلى الجبال ، ولولا ملاعب الأسنة وعامر بن الطفيل ما نجا منهم أحد ؛ ونال بنو غسان منهم ما أرادوا .

وأمر الحارث أن تسير الأسرى إلى الشام على نحو ما دبر . ثم قال : لا بد من السير إلى عنترة ، لنقطع دابره ودابر من معه .

فقال سنان : إن عنترة الآن عند دريد وهو شيخ القبائل ، وحوله الآن ما لا يقل عن خمسين ألف فارس ، وإن سرت إليه تبدل الأمر وحل بنا الدمار والخسران ، وإنى لأخشى الآن أن يكون عنترة قد بلغه نبأ مسير الأسرى إلى الشام فيدركهم من خلفهم ، ويستردهم بسيفه ، وإن كان معهم أمة ربيعة ومضر ، ثم يسلط علينا شياطين العرب ، فتحل بنا الوبال والعطب ، لأنه لا يرضى لقومه المهانة وإن أساءوا إليه أبشع إساءة ، وأرى ألا نبرح هذا المكان ، حتى تبعد الأسرى عن هذه الديار ، وبذلك نأمن على أنفسنا ، ونترك للنعمان فرصة يبعد فيها عن دياره ، فى طلب إخوته منا ، ثم تدهمه أنت بجندك فى القفار وتقطع دابره .

فقال الحارث : أتظن أننا إن هجمنا على عنترة ودريد فى هذه الكثرة الساحقة من الجنود لا نبلغ فيهم ما نريد ، وكانت هزيمتنا فى رأيك أقرب من فوزنا ؟ !

فقال سنان : نعم أقول ذلك ، ولا أتوقع إلا هزيمة منكرة ، لأن دريداً ومن معه فى جبال غزية ، وهى منيعة حصينة ، إن اعتصم بها ألف فارس لا يقدر أحد أن ينال منهم نيلا ، وإن اجتمع معه العرب والعجم ، وربما وصل النعمان بجنوده ، وأنت فى قتالهم ، وحينئذ لا تقوم لنا قائمة ، ولهذا لا أزال أرى البقاء فى هذا المكان ، ثم ترسل الجواسيس ليأتوك بالأخبار ، ومن سار من الأعداء إليك مزقتهم ، ومحوت أثرهم .

بان للحارث صواب هذا الرأى فاتبعه ورضى به ، وأرسل الجواسيس إلى العراق وإلى عنترة ، وبعد قليل جاءته الأنباء قائلة :

لقد ذهبنا إلى دريد وعنترة باحثين فلم نجدهما ، ووجدنا الأرض خالية ، وما عرفنا لهما مذهباً ولا مضطرباً .

أما الجواسيس الذين بعثهم ليقفوا على أخبار النعمان فقد بلغوه أنه قادم إليه بعد ثلاثة أيام فى ستين ألف مقاتل ، فقال الحارث آسفاً : لقد أخطأنا إذ تركناه حتى جمع جموعه ، ونحن لا ننتظر حتى يغزونا فى مقامنا ، ثم أمر جيشه أن يسير للقائه ، وجعل بنى فزارة فى المقدمة لخبرتها بالبلاد والطرق ، فالتقوا بالنعمان ونكسوا أعلامه ، وشردوا فى القفار رجاله فولى هارباً .

أما عنترة فإنه أقام فى بنى هوازن آمناً ، فجاءه التجار بما وقع من الحارث ملك الشام على بنى عبس وغطفان وعامر وجيش النعمان ، وما

كان من سنان بن حارثة وحصن بن حذيفة وفزارة ، من الخروج على بنى عبس والغدر بهم ، فقال لدريد : من الحق والمروءة أن ننسى الضغينة فى وقت الشدة ، ولهذا وجب أن نسير إلى الحارث وبنى فزارة ، فعسى أن ندرك الأسرى فى طريقهم إلى الشام فنخلصهم ، وعسى أن نلقاهم فرقة فرقة ، فنعيدها واحدة فى إثر أخرى ، وربما وجدنا النعمان فى حرج وضيق ، ففرجنا ضيقه وكربه ، وعرف بذلك قدرنا وفضلنا ، ثم نميل على الأعداء ميلة واحدة ، تجعلهم يفرون إلى ديارهم فزعين .

رضى دريد عن هذا الرأى ، فجعلوا العيال والنساء فى جبال غزية ، ووكلوا أمرهم إلى حامية قوية من القبائل النازلين عندهم فى الوديان والغدران ، وكانت عدتهم أربعين ألفاً ، ثم خرج هو وعنترة فى عشرة آلاف منهم .

وبينما هم يسيرون رأوا جماعة جادة فى سيرها ، فذهبوا إليها ، وألفوها جماعات من أعيان بنى عبس متنكرين هاربين ، عليهم آثار البؤس والشقاء بادية ، وكان فيهم قيس والربيع وعمارة والحارث بن زهير الذى خف إلى عنترة حين رآه وقال : لقد أخطأنا فى حقك إذ عققناك وأنكرناك ، فإن قبلت توبتنا فأنقذنا مما نحن فيه من البلاء ، وإلا فاضرب أعناقنا بسيفك ، فذلك أكرم لنا من الضيق الذى نعانيه ، ولعن الله من يشنؤك بعد ذلك . وتقدم الربيع وقد بدت عليه المذلة والمسكنة ، وجعل يثنى عليه ،

ويرجو منه أن يعفو عنه وعن قومه، ويدفع عنهم هذا العار الذى أصابهم ، وجعل قيس بن زهير يسترضيه، ويقص عليه ما انتابهم من المحن فى غيبته، حتى رق قلبه ، وأعلن عفوه ، وأنه سيطرد الأعداء مقهورين ، ويرد قومه إلى ديارهم فى عزة وكرامة .

وقال دريد : وإنى فى ذلك رهين إشارتك ، وأشد ساعد لك .

نزل عنترة ومن معه للراحة حيث التقى بهؤلاء الجماعة الهاربين من بنى عبس ، وقال : لقد كنت أردت القضاء على بنى فزارة ، ولولا قيس ما أحجمت عن تنفيذ إرادتى ، وما تركت منهم أحداً .

فقال أسيد : يا أبا الفوارس ، دبر الآن أمرك ، واكشف الغمة عن قومك ، فإن الأعداء قد جاروا وما رفقوا .

فقال عنترة : ما لنا الآن إلا الإغارة على بلاد الشام .

فقالوا : ذلك أقوم سبيل إلى نصرنا وقهر أعدائنا ، ولو أننا أدركنا الأسرى فى الطريق قبل أن يصلوا إلى الشام لكان فى ذلك كل خير لنا .

فقال عنترة : ما أظن إلا أننا مدركوهم ، لأن سيرهم بطىء وثقيل لوجود النساء والعيال معهم ، ولا يضيرنا أن سبقونا ، فسنغير على الشام ونخرب البلاد ونرد الأسرى ، ونغنم الأموال ، ويقع فى أيدينا كثير من أسراهم ، فإن البلاد خالية الآن ، وقال مقرى الوحوش : لا أجد خيراً من هذا الرأى .

وقال دريد : هيا بنا إلى الرحيل فإن الإبطاء لا نجنى منه إلا التعب والمشقة .

وثارت الحمية فى نفوس القوم فقالوا : والله لا وجدنا للراحة طعماً حتى ندوس بحوافر خيلنا أرض الأعداء ، ونفعل بأهلها أكثر مما فعلوه وأبشع ، وساروا ينهبون الأرض نهباً ، وقد هانت عليهم نفوسهم فى سبيل عزتهم وكرامتهم ، وقوى هذه الحماسة فى نفس دريد أن كان بينه وبين بنى عامر نسب ، وفى نفس عنترة صداقته لعامر بن الطفيل وإخوته .

أما النعمان فإنه لما فر مهزوماً جمع أهله وماله وسار بهم إلى المدائن طالباً حماية كسرى أنو شروان ، فوجد كسرى فى جيوش ساحقة ، قد انتشرت مضاربها فى البيداء، فدخل على كسرى ومعه عشرة من بنى عمه من خواص بنى لخم ، فقبل الأرض بين يديه وبكى على زوال دولته ، وأخبره بقصته .

فزع كسرى وقال : من أين نزل علينا هذا العارض الذى أمطرنا بشره ، ونحن قد نشرنا العدل بين الناس فى البلاد والديار ، ولكن الأمر للرب الكريم، واعلم يا ملك العرب أنه لم يصلنى من جنود خراسان أحد، وقد أسر إلىّ الجواسيس أن ملك الإفرنج وصل بجيوشه إلى هيت ، وأنت يا نعمان قد يتبعك أعداؤك الذين هزموك وطردوك ، ويقتفون آثارك ، فإن أنا غادرت البلاد للقاء ملك الإفرنج ، وجد أعداؤك الذين يجرون من خلفك

الديار خالية فملكوها وجعلوها فى قبضة أيديهم ، وقد أصبحت الآن بين عدوين قويين ، فجيش الإفرنج يطلبنى من أمامى ، وجيوش الحارث الوهاب عدوك وخصيمك يغزوننا من خلفنا ، ولهذا فقد عولت على البقاء فى هذا المكان حتى لا أضعف قوتى ببعدى عن بلادى ، ومورد قوتى وعتادى ، والزاد لجنودى ورجالى .

ووافقه على ذلك كبراء دولته ، وقواد جيوشه ، وقالوا : وعما قريب سيصل إلينا فى هذا المكان جيوش خراسان فيكونون لنا قوة .

وقال النعمان: وسيأتينا هنا قبائل كنت أنفذت فى طلبها لنجدتى ، ومعاونتى فى قتالى .

* * *

لبث كسرى يعد جنوده وينظمهم ، وبعد أيام قلائل أقبلت جيوش الإفرنج كأنها أمواج بحر تتوثب ، وقد انعقد من فوقها سحب من غبار حجب الشمس ، وكان فى صدرها طوائف من القسيسين والرهبان يتلون الإنجيل ، ومن خلفهم طوائف من أبناء الفرسان ، وجوههم كالبدور ، وبأيديهم سيوف محلاة بالجواهر الكريمة ، ثم نزلوا فى مضاربهم أمام أعدائهم .

ورأى خيلجان ملك الإفرنج جيش كسرى وكان فارساً جباراً ، فأعجبته قوته ، وحدثته نفسه أنه الغالب المنتصر ، وأرسل إلى كسرى ينذره ويتوعده ويقول : إما أن ترحل من هذه الديار ، وإما أن تدخل أنت وقومك فى دين المسيح ، وتهدم بيوت النيران ، وتقيم الكنائس والصوامع ، وإما وجدت

منا طعناً لا يبقى منكم باقية .

وصل رسول خيلجان إلى كسرى ، وبلغه الإنذار الذى يحمله ، فغضب كسرى وقال : لولا أننى أخذت نفسى بالعدل ، وحرمت عليها الجور والظلم لكان جوابى أن أقتل الرسول ، أو أسجنه وأعذبه ، ثم قال للرسول : ارجع إلى صاحبك وبلغه أننا لا نخشى أحداً ، وسوف ترى الموت إذا هجم ، وسوف تندم حيث لا ينفعك الندم . فأسرع الرسول راجعاً ، وبلغ خيلجان ما سمع ، فتبسم ضاحكاً وقال : غداً أمحو آثارهم ، وأجعلهم أحاديث .

وفى الصباح وقعت بين الفريقين الواقعة ، فاستعرت نار الحرب ، وغامت السماء ، فغطتها سحب الغبار ، وانهمرت الدماء من صفحات السيوف والنصال ، ووقع من الأهوال ما تشيب منه الأطفال ، وكان يوماً عسيراً على كسرى وجنوده ، فجلس على سريره ، وهو غارق فى أحزانه وهمومه ، وجعل يشكو لأرباب دولته ، وقال : إلى الآن لم تصل إلينا جنود خراسان ، وإن طالت بنا الحال ما بقى منا ديار ولا نافخ نار ، وأرى أن نأمر أهل هذه الديار أن يرجعوا بأهليهم وأموالهم إلى الشاطئ الآخر ، ولا ينتظر إلا من كان محارباً ، فإذا رأينا الخسران قد حاق بنا عبرنا الجسور إلى الشاطئ الآخر ، ثم أتلفناها ، وجعلناها لا تحتمل قدماً لعابر ، وتحصنا بالمياه ، حتى يأتينا من نعول عليه من أنصارنا وأتباعنا .

فاستحسن الحاضرون هذا الرأى وقالوا : لا بد من تنفيذه فوراً ، قبل أن يزيد العدو بما يأتيهم من المدد قوة وعدداً . وباتوا يدبرون أمرهم ، وطوائف الرهبان تحرسهم ، ويتلون تلاوة المجوس ، ويتوسلون إلى النار أن تنصرهم على أعدائهم .

أما خيلجان فإنه لم تعجبه تلك النتيجة وكان يود ألا تطول الحرب ، وأن يقضى على أعدائه فى يوم واحد ، فجعل يلوم فرسانه ويقول : لقد خرجتم من دياركم ابتغاء الأجر وإرضاء للمسيح ، فكيف تتثاقلون وتتواكلون ؟ ! ! إنكم لو أخلصتم فى قتالكم ، واستقبالكم الأسنة بصدوركم لقضيتم على أعدائكم فى ساعات من النهار ! فقالوا : ليصل علينا الرهبان صلاة الأموات ، فوحق المسيح ما خرجنا من ديارنا إلا بعد أن ودعنا أهلينا وداعاً لا رجعة لنا من بعده ، وقد حاربنا اليوم حرباً تشيب من هولها الأطفال ؛ ولكنك وددت أن نكون مثلك ، وهذا ما لم يصل إليه أحد منا ، فأنت فريد عصرك فى القتال ومناجزة الأبطال .

وفى اليوم الثانى كان الحارث الوهاب وجنوده قد وصلوا إلى ميدان القتال ، ودارت رحى الحرب ، وأصبح كسرى وجنوده بين شقى مقص الفناء ، وعول هو والنعمان على الفرار إلى الشاطئ الآخر ، هرباً من الموت الذى يتدفق على جنده من كل صوب وناحية ، ولكن غبرة ثائرة

ظهرت فى البرية ، فسكت القتال ، وانتظر جميع المحاربين ما يكون من أمر هذه الغبرة القادمة ، وجميعهم يتحرق شوقاً إلى معرفة هذه الغبرة ، ولمن تكون ؟ وما غرضها ؟

٣

عرفت من قبل أن ذا الخمار كان قد أعجب بغمرة ، بعد أن خان عنترة ، وأنه رغب أن يتزوجها ، ولما ذهب إلى أبيها ليخطبها كان قد وصل إليها نبأ قتل المثعنجر أخيها ، فشغلها الحزن على أخيها عن كل شيء فى دنياها ، فصبر ذو الخمار على مضض ، حتى يذهب عنها حزنها ، وتنقضى مدة حدادها ، ولكنها أرادت أن تجمع الفرسان وتذهب بهم للأخذ بثأر أخيها ، وفى الوقت نفسه صرفها الحزن عن ذى الخمار ، وعن التفكير فى أن تتزوجه ؛ وكاشفت أباها بذلك ، وطلبت إليه صرفه عنها فقال لها أبوها : إن إبعاده من أيسر الأمور علينا ، وسأصرفه هو وصحبه ؛ ثم خرج من عندها ليعالج أمر ذى الخمار وصرفه .

وقال أبوها لذى الخمار : لقد علمت ما أصابنا من الأحزان لقتل المثعنجر ، وقد رحلت غمرة ابنتى إلى أخوالها لتستعين بهم على الأخذ بثأر

أخيها ، وما عولت على شيء فى دنياها إلا ما رحلت من أجله ، وبودى أن أزوجك وصحبك من بنات سادات العرب ، لتربطنا بكم روابط النسب ، ويكون لنا بكم هيبة وقوة .

فقال ذو الخمار : سأعرض هذا الأمر على صحبى ، ثم أفضى إليك بما يستقر عليه رأيهم .

ذهب ذو الخمار إلى صحبه ، وبلغهم حديث أبى غمرة ، فقالوا له : لقد أغرقت نفسك يا ذا الخمار فى غمرة لا مخلص لك منها ، وأغرقتنا معك ، بسبب حقدك على عنترة ، وحسدك إياه .

فقال ذو الخمار : صدق رأيكم ، فقد عققت دريدا ، وخنت عنترة ، وما بلغت أرباً ولا جنيت ثمرة ، وليس لنا الآن إلا أن نغير على هؤلاء اللئام ، ونسوق أموالهم بين أيدينا ، ونولى وجهنا شطر النعمان ، ليصلح بيننا وبين دريد ، ويرجعنا إلى أهلنا ، قبل أن يذاع بين العرب أمرنا .

فقال العباس بن مرداس : أما المسير إلى النعمان فلا بأس علينا منه ، وأما الإغارة على هؤلاء فليست من الحزم فى قليل ولا كثير . فإنى أخشى أن تكون غمرة قد أخفت نفسها ، زهداً فيك يا ذا الخمار وبغضاً ، وكلفت والدها أن يردك عنها بما قال ، فإن نحن أسأنا إلى قومها كنا طعاماً لسيفها وسيوفهم .

فقال ذو الخمار : ما قلت إلا حقاً ، ولو كنا على يقين من رحيلها لسقت قومها بين يدى سوق الأنعام ، والرأى الأخير أن نخرج من هذه الديار فى ستر من الظلام ونحاول العودة إلى ديارنا على يد الملك النعمان .

* * *

رحل ذو الخمار وصحبه ، وما زالوا سائرين حتى لقيهم عمرو بن معديكرب فى أربعة آلاف من فرسانه ، وكان سائراً بهم إلى النعمان ليساعده وينصره ، فتعارفوا ، واتفقوا على أن يسيروا جميعاً إلى النعمان لنصره ، ولما أشرفوا على أرض النجف سألوا عن النعمان فقيل إنه فر بأهله إلى كسرى مهزوماً ، ليطلب معونته ، فحزنوا من أجله ، واتفقوا على أن ينزلوا فى مكانهم هذا للراحة ، ثم يستأنفوا المسير إلى النعمان ليكشفوا عنه كربته ، وما لبثوا أن جاءهم حجار بن عامر ، فارس بنى كندة ، فى ستة آلاف فارس ، فخفوا إليه ، وسلموا عليه ، وتلاقت أغراضهم بلقائهم ، وقال ذو الخمار : لا تنزل فإن دولة النعمان قد دالت ، وفر بأهله إلى كسرى ليرد إليه دولته من أيدى الحارث الوهاب ، فسار جميعهم فى عشرة آلاف من الفرسان ، وجدوا فى المسير عسى أن يدركوا الحارث وجنده الذين اقتفوا أثر النعمان ، فيمزقوهم شر ممزق ، ويدفعوا عن النعمان خطراً لاحقاً به ، ولكنهم ما أدركوهم إلا عند كسرى وهم يقاتلونه ،

وكان قد وقع هو والنعمان فى ضيق منهم ، وهمّ من شدة ما يلقاه أن يفر بجنوده هرباً .

خاض هؤلاء الفرسان المعركة ، لينفسوا عن كسرى ضيقه وكربته ، فكانوا الأسود الكاسرة ، والمنايا الماحقة ، وشقت رماحهم الصدور ، وقطعت سيوفهم النحور ، وأزاحوا عن جنود كسرى ما جثم عن صدورهم من البلاء ، فانطلقوا من عقال خوفهم وقهرهم ، وشاركوهم فى التنكيل بالأعداء ، وانقضى النهار وجنود كسرى هم الغالبون .

لقى النعمان هؤلاء الفرسان وأثنى عليهم ومنحهم العطايا ، وقص عليهم ما كانوا فيه من الفشل والمهانة ، وقال لهم : لولا أنتم لكنا من المهالكين ، وهؤلاء إخوتى أسرى فى أيدى الإفرنج ، فقال عمرو بن معد يكرب : لو علمنا بهذا كله ما توانينا ، ولكن كيف وقع إخوتك فى أسرهم ؟ فقال النعمان :

أتانى بنو فزارة مع الربيع بن زياد ، وجعلوا يشكون من عنترة ، ويذكرون لى فى أسف وألم ما وقع منه عليهم ، وقالوا : إنه عند دريد ابن الصمة ، وقد اتفقا على خلعى من الملك ، والاستيلاء على ديارى وبلادى ، فبعثت إخوتى على جنود العراق ليجازوهم على ما فعلوا ، فوافق وصولهم ظهور جيش الشام وجيش الإفرنج ، وغدر بى بنو فزارة لما بينهم

وبين بنى عبس فقتلوا من رجالى كثيراً ، وأسروا إخوتى ، وأعتقد أن هذا البلاء حاق بنا لأننا كرهنا عنترة وعاديناه .

فقال ذو الخمار : صدقت فيما اعتقدت ، فما عاداه أحد إلا تعثر فى أذيال الخيبة والوبال ، وقد جربت ذلك معه فى حوادث كثيرة لا مجال لذكرها الآن ، أما هؤلاء الأعداء ، فعلينا أن نداولهم ونماطلهم حتى يرد إلينا جنود خراسان وقبائل الحجاز ، ليكونوا لنا قوة .

هال ملك الإفرنج وملك الشام ما رأوا من هؤلاء الفرسان ، وذى الخمار وعمرو بن معديكرب وحجار بن عامر ، وأشار سنان عليهم أن يلقوهم بكثرتهم ، ولا يطاولوهم بالمبارزة ، ليقضوا عليهم قبل أن يصلهم جنود خراسان وقبائل الحجاز ، فباتوا على هذا الرأى ، وفى الصباح وقعت الواقعة وانتهت آخر النهار بقهر كسرى وأنصاره وأسر عمرو بن معديكرب .

واجتمع النعمان بذى الخمار وجعل يمنيه ويعده إن هو اجتهد وصاحبه ، وخلص عمراً من أسره ، وطاول الأعداء حتى يأتيهم جنود خراسان وقبائل الحجاز .

فقال ذو الخمار : وإنى أريد منك أن تصلح بينى وبين عنترة .

فقال النعمان : ولقد وقع خطأ بينى وبين دريد على أثر وشاية كاذبة ، وسأعمل على الإصلاح بينى وبينه ، وبينك وبين عنترة ، بعد

أن تكشف عنا هذه الغمة .

قامت المعركة حامية ، وخاض ذو الخمار غمارها ، وكانت مبارزة بينه وبين ملك الإفرنج ، فاستمر معه حتى أتعبه وأرهقه ، ثم طعنه بالسيف طعنة ألقته على الأرض جريحاً . وأراد أن يهجم عليه ليقتله ولكن أخواه كوبرت وموبرت أسرعا إليه ، وطعنا ذا الخمار طعنتين ، إحداهما أصابت جواده ، والأخرى أصابته فوقع جريحاً ، ثم حملاه إلى خيامهم ، وأرادا قتله ، ولكن كثيراً من أولى الرأى فيهم قالوا : لا ينبغى أن يقتل هذا الفارس ، ولكن علينا أن نعالجه حتى يشفى من جرحه ، وإذا فتحنا البلاد دعونا الناس إلى النصرانية ، فمن أجاب أبقيناه ، ومن أبى قتلناه .

ثم استؤنف القتال ، ودام شديداً بأسه ، ثقيلة وطأته على كسرى وجنوده ، وأشار النعمان عليه أن يرجعوا إلى الشاطئ الآخر حتى يأتيهم مدد ونجدة ، فآلى على نفسه ألا يتقهقر حتى يبارز هو ملك الإفرنج نفسه ، بعد أن يتفقا على أن يكون المغلوب منهما ملكاً لغالبه ، فإن غلبنى سلمت إليه الملك والبلاد ودخلت فى دينه ، وإن غلبته رحل بجنوده إلى غير عودة . ثم قام ومضى حافى القدمين إلى معبد النار فوقف أمامها خاشعاً يومئ إليها ، والموبذان بجانبه يتلو كلام المجوس ، وخدم النار يبخرون بين يديه ، وجميعهم يدعون له بالنصر على الأعداء .

وكان النعمان فى ألم عظيم وحزن أليم من أجل الملك كسرى وما انتابه

ذو الخمار وقد سقط جريحاً إلى جوار ملك الإفرنج

من المذلة والهوان ، ثم خرج كسرى من المعبد ، وأخذ يستعد لمناجزة ملك الإفرنج ، ولكن النعمان بلغه أن رسول ملك الروم يطلب الحضور بين يديه ، لأن معه رسالة ينشد بها الصلح والسلام ، فعجب كسرى وقال : كيف يكون فى هذه الجيوش ، وقد علم أننا أشرفنا على الهلاك ، ثم يبعث رسولا فى طلب الصلح والسلام ؟ !

فقال الموبذان شيخ النيران : إن الرب القديم أوقع الرعب فى قلوبهم ، لأنهم كانوا يبغون محو ديانة قديمة سليمة ، ليقيموا على أنقاضها ديانة فاسدة باطلة .

فقال كسرى : قد يكون ذلك صحيحاً ، أحضروا الرسول لنرى ما عنده . ثم جلس على سريره الفضى ، ولبس تاجه ورداءه ، وأحاطت به حجابه ، فى ثيابهم الحريرية ، وسيوفهم المحلاة بالذهب .

دخل الرسول عليه وكان بطريقاً كبيراً ، ومعه صاحب دمشق ، فقبل الأرض بين يديه ، ثم قال : إن قيصر ملك الروم يقدم إليك اعتذاره ، ويقول : ما حمله على أن يقف منك هذا الموقف الغادر إلا ملك الإفرنج الذى طلع عليه من البحار بجنود لا طاقة له بها ، وقد أشرف الآن ملك الإفرنج على الموت ، من الجرح الذى أصابه به ذو الخمار ، وقد أنفذنى إليك أسترضيك وأبلغك أنه راحل عن بلادك ، وأنك آمن فيها من أى عدوان على شرط ألا تطالبه بدم أو خراج ، وحينما يستقر فى بلاده سيطلق

من الأسر إخوة النعمان وجميع الأسرى ما عدا بنى عبس وعامر وغطفان ، فإن صاحب الشام أقسم أن يبقيهم معذبين فى سجونهم شهراً ، ثم يطلقهم إذا افتداهم بالمال أقوامهم .

عجب كسرى أن طلب منه الصلح وهو المغلوب المقهور ، وظن أن ذلك راجع إلى صحة دينه ، وبركة ناره التى يعبدها من دون الله ، فاستجاب لدعوة الصلح فرحاً ، وأرسل إلى قيصر مع رسوله خلعاً ومنحاً ، وجعل صاحبه وزيره بزرجمهر ، وما جاء الصباح حتى كانت الأرض خالية كأن لم يكن فيها أحد بالأمس .

قال النعمان : ما طلب هؤلاء صلحنا إلا لأمر عظيم ، ولا أظن إلا أن بلادهم وقعت فى محنة وبلاء .

٤

جاء الحارث الوهاب وهو يحارب كسرى والنعمان خمسة رجال من الأعراب فى حالة ابتئاس واكتئاب ، فأنكر الحارث تلك الحال ، وابتدرهم بالسؤال عما وراءهم فقالوا : زلزلت بلاد الشام زلزالها ، وجاءها الخراب من جميع نواحيها ، وقتل رجالها ، وسبيت نساؤها ، فقال الحارث : ومن فعل هذا بديارنا ؟

فقالوا : حامية بنى عبس ، عنترة بن شداد ، وفرسانه الجبابرة ، ويبلغ عددهم عشرة آلاف .

فقال الحارث : وأين الأسرى الذين أرسلتهم من أرض الحجاز مع بادر بن غياث ؟

فقالوا : خلصهم عنترة ، وقتل من كانوا معهم ، وما نجا إلا قليل منهم .

فقال الحارث : هذا جزاء الطمع الجائر ، والحسد الغادر ، وترك بلادى محرومة من رعايتى ، والهجرة منها للعدوان على غيرى ، وكما تدين تدان ، وكل عقوبة بما اجترحته اليدان .

وأما سنان بن حارثة فإنه عض كفيه ندماً وغيظاً ، وقال للحارث : ماذا نويت أن تفعل بعد هذه الأخبار الأليمة ؟

فقال الحارث : ليس أمامى إلا أن أذهب إلى قيصر الروم وأبلغه ما فعله عنترة بالديار ، وأرجو منه أن يرجع معنا إلى الشام ، لنلتقى بهذا العبد فنصب عليه الوبال ، ونخلص منه الأسرى والأموال .

فقال سنان : لا ينبغى لك الرحيل إلى ديارك إلا بعد أن تنتهوا من هذه الحرب بالصلح مع كسرى ، حتى لا تتركوا لكم عدواً من خلفكم ، يقتفى أثركم ، ويصب جام نقمته عليكم .

نهض الحارث إلى قيصر الروم فى خيمته ، وكان معه ملك الإفرنج ، وجماعة من المقدمين ، وكانوا يتشاورون ويدبرون خطط الزحف على المدائن فى الصباح ، ولما بلغه نبأ عنترة وما فعله ، كاد يصعق لشدة وقعه ،

فقال قيصر الروم : لا بد من الرحيل الآن قبل أن يستفحل الشر فى ديارنا .

وقال ملك الإفرنج : ارحلوا أنتم إلى بلادكم ، ودعونى هنا للجهاد ، ولا أريد منكم معونة .

فقال قيصر : ليس من الحكمة أن تبقى هنا ، ولا يغرنك خلو هذه الديار من الفرسان ، فعما قليل يأتيهم الجند والفرسان من كل مكان ، ونخاف أن تكسر وتهزم ، وتضعف بذلك ملة النصارى .

وأجمع رأيهم على مصالحة كسرى وإزالة ما بينهم وبينه من حرب وخصومة ، وكان ذلك الدافع لهم على مصالحته .

تم الصلح وعزم القوم على الرحيل ، وبلغهم الحارث رأى سنان فى العودة إلى الديار ، وذلك بقسمة الجيوش إلى قسمين ، ورجوعهم من طريقين ، حتى لا يفوتهم لقاء أعدائهم ، الذين رحلوا من أجلهم ، وأخذ ملك الروم معه أسرى بنى عامر ، وعمرو بن معديكرب ، وذا الخمار ، الذين أسرهم ، ثم ساروا وعبروا أرض هيت وقاربوا أرض القاصريات ، فنزلوا للراحة ، ووكل حراسة الأسرى إلى جماعة من الروم ، ولما جن الليل ، وغرق القوم فى نوم عميق ، قال ذو الخمار لعامر بن الطفيل وملاعب الأسنة وفرسان بنى عامر : إلى متى السكوت على ما نحن فيه من أسر وهوان ؟ ! وكيف نرضى أن يسوقنا هؤلاء سوق الأغنام ؟ ! أخوفاً من الموت ، وطمعاً فى الحياة ؟ ! ! إن الموت أكرم لأنفسنا من هذه الحياة الذليلة البئيسة ، فقوموا بنا إلى سيوف هؤلاء اللئام النيام ، فنضرب

بها أعناقهم ، ونشفى غليل صدورنا منهم ، ثم نطلب البيداء هاربين ، وليمت منا فى سبيل ذلك من يموت .

فقال عامر بن الطفيل : ومن منا يرضى بهذه الحال ؟ والله لولا هذا الوثاق الذى حبست فيه ما صبرت .

وقال عمرو بن معد يكرب ما قاله عامر .

فقال ذو الخمار : لقد قطعت وثاقى لأنه كان ضعيفاً ، وقد دفعتنى نفسى إلى أخذ السيف والانقضاض به على هؤلاء لولا ما أقاسيه من ألم جرحى ، ولكنى سأطلقكم من قيودكم وأغلالكم وأقاتل معكم حتى أقع على الأرض طريحاً . وأسرع فى غفلة من حراسهم النائمين ، وفك أغلال عامر وعمرو بن معديكرب ، ونشطوا فى إطلاق الأسرى جميعهم ، وكان كلما أطلق أسيراً اشترك معهم فى إطلاق بقية الأسرى ، حتى أخلى سبيلهم أجمعين ، ثم ركبوا خيولا من خيول الأعداء خفية ، وتجهزوا بأسلحة من أسلحتهم ، وانفلتوا من الجيش فى ظلام الليل ، وكانوا نحو مائتى فارس ، منهم خمسون من سادات بنى عامر ، وما كادوا يفلتون حتى أنكرهم الحارث وانتبه الموكلون بهم ، وماج الجند ، وانطلق الفرسان من ورائهم ، فلما أدركوهم قامت بينهم حرب طاحنة ، أبلى فيها الهاربون بلاء حسناً ، ودافعوا عن أنفسهم أكرم دفاع ، ولكن الفرسان كانوا أكثر منهم عدداً ، ورأى ذو الخمار الموت بعينه ، فأرخى العنان

لجواده ، وفر هارباً طالباً أرض العراق ، ونجا ، أما بقيتهم فقد أنفوا من الهرب ، وقاتلوا حتى أشرفوا على العطب ، وقتل منهم ثلاثون فارساً ، وسدت فى وجوههم المذاهب ، ونادى ملك الروم فى جماعته أن خذوهم أسرى ولا تهلكوهم حتى نشفى صدورنا بتعذيبهم مرة أخرى .

وطلع عليهم إذ ذاك غبار من ناحية الشام فقال ملك الروم : ما أظن هذا الغبار إلا للجيش الذى سمعنا أنه خرب الشام ، وقد ساقهم إلينا المسيح ليلقوا جزاءهم ، وليردوا موارد الهلاك والعطب ؛ وكان هذا الجيش لعنترة بن شداد ، ودريد بن الصمة ، وإخوة الملك النعمان ، والعرب الذين كانوا معهم من بنى هوازن وجشم ، وأهل العراق . وذلك أن عنترة حين لقيه قيس وجماعته الهاربون واعتذروا إليه وقبل عذرهم ، سار إلى الشام ودريد ابن الصمة معه ، وشيبوب أمامهم ، يقف لهم على أخبار القبائل ، وهم من خلفه مسرعون ، وفى اليوم الثامن قال شيبوب لهم : إن القوم الذين معهم الأسرى رحلوا من الأعناك إلى دمشق ، فإذا استرحتم نهاركم هذا ثم استأنفتم المسير أدركتموهم قبل أن يدخلوا دمشق .

فقال دريد : لله درك يا شيبوب !

وقال قيس : إن القوم ما رحلوا من الأعناك إلا بعد أن أرسلوا إلى دمشق من يبشر أهلها بقدومهم ، ويصف لهم ما معهم من الأموال والأسرى ، وحينئذ يخرجون جميعاً لاستقبالهم ، وتكثر جموعهم ، وأرى أن يسبقنا ألف

فارس إلى المدينة بحيث لا يظهرون للطائفة التى معها أسرانا واموالنا ، فيسدوا أبواب المدينة بسيوفهم ويملكوها ، وندرك نحن تلك الطائفة ، ونعمل فى فرسانها سيوفنا ، ونخلص منهم الأسرى والأموال ؛ فاستحسنوا هذا الرأى ونفذوه .

وقال مقرى الوحوش : سأسبقكم بألف فارس إلى المدينة لأنى أعرف بها منكم ، وبعد أن استراحوا جدوا فى تنفيذ ما دبروا ، وبلغوا به مرادهم ، وخلصوا جميع الأسرى ، وكان عددهم ثمانية عشر ألفاً ، وقتلوا كثيراً من الأعداء وأسروا أخا الحارث ، وخربوا الكنائس والصوامع ، ثم نزلوا فى مضاربهم خارج المدينة ، وتقدمت كبشة أم عامر بن الطفيل إلى عنترة ودريد ومعها جماعة من النساء فبكين وسألنه أن يخلص رجالهن ، فقال : إنا سائرون إلى العراق لمعونة النعمان وكسرى ، وتخليص ما لكن من رجال ، وقال لكبشة : أنا أحرص منك على خلاصه لأنه أخى وصديق ، ثم أرسلوا الأسرى والسبايا فى خمسة آلاف فارس إلى أرض الحجاز .

أراد عنترة ومن معه أن يسيروا إلى أرض العراق فقال مقرى الوحوش : أرى أن تسيروا معى إلى أنطاكية مدينة قيصر الروم ، لنغنم منها كثيراً من الذهب والفضة وجوارى الروم ، ثم نذهب إلى أرض بالس ونهب ما فى أديارها وكنائسها من أموال وذخائر .

فقال الملك الأسود : ذلك الرأى الحق ، لأنى أعلم أن ملك الروم قد خرب بلاد كسرى ، ونريد أن نفعل ببلاده ما فعله بديار كسرى جزاء وفاقاً .

٥

سار عنترة وجنوده إلى تلك الأراضى والبلاد وغنم منها من الأموال ما قال عنه عنترة : إنها تكفيهم خمسين عاماً ، ثم غادروا تلك البلاد وساروا حتى التقوا بالروم فى أرض الغادرات ، فلما رأوا جموعهم وكثرة عددهم قال دريد : لا يرجع هؤلاء الجنود الذين لا يحصى عددهم من أرض العراق إلا إذا كان الخلاف قد دب فيهم فصدع بنيانهم .

فقال عنترة : ما أظن إلا أنهم عرفوا ما فعلناه بديارهم فرجعوا لحمايتها ودفع الضر عنها ، وإنى لذاهب إليهم فى ألف فارس لأجعل من أجسادهم رزقاً للوحش والطير .

فقال دريد : أهانت عليك نفسك حتى تلقى بها فى تهلكة محتومة ؟ ! وماذا يفعل فرسانك فى هذه الألوف المؤلفة ؟

فقال عنترة : لا تغرنك هذه الجموع وإن كانت أكثر من ذلك أضعافاً ، فإن فارساً عربياً بألف فارس من عبدة الصلبان .

فقال دريد : افعل ما شئت ونحن من ورائك بسيوفنا وقلوبنا .

نشبت الحرب بين الجيشين ، واستعر أوارها ، وامتد لظاها ، وأكلت من جنود الروم والإفرنج ما جعلهم يوقنون أنها إن استمرت لا تبقى منهم رجالا ولا ركباناً ، وخاف قيصر الروم أن يضيع ملكه ، وتفنى رجاله ، فرفع راية السلام ، وأرسل إلى عنترة رسلا يطلبون الصلح والأمان ، فاستجاب عنترة لما طلب قائلا : على أن يترك فى قبضة يدنا خمسة آلاف من سادات الروم رهائن عندنا ، حتى نأمن على أهلنا وأموالنا من الحارث الوهاب الذى سار الآن إلى أرض الحجاز بجنوده ، فإن بعثهم إلينا مكرمين أطلقنا رهائنكم وإلا ضربنا أعناقهم ، ثم سرنا إلى الحارث فخلصنا منه رجالنا ونساءنا وأموالنا على الرغم منه ومن جموعه ورجاله .

فرضى قيصر الروم بذلك ، وسلم إليه الرهائن ، ومعها كثير من الأموال والهدايا ، لتكون برهاناً على صدقه فى الصلح ، ودافعاً إلى الاطمئنان إليه .

أما ملك الإفرنج فإنه أعرض عن الصلح وأبى ، وقال : ما كان لى أن أهجر بلادى وأولادى وأخرج فى هذه الألوف من الفرسان ثم أرجع إليها خائباً مهزوماً ، بعد أن خسرت من رجالى وأموالى شيئاً كثيراً ، وسأعكف على قتال هؤلاء العرب حتى أدخلهم فى طاعتى أو أمحو آثارهم .

أعلن ملك الإفرنج الحرب على عنترة ، مغروراً بنفسه وكثرة جنده ، طامعاً فى قتله والقضاء على رجاله ، ولكن عمى قلبه ، وضل سعيه ، وما

اتعظ بغيره وما أصاب جنده ، فكان أول من شرب كأس المنية ، إذ طعنه عنترة فى صدره ، فسقط مضرجاً بدمه ، وحزن أخواه لموته حزناً أليماً ، وثارا فى حماسة من الجند للأخذ بثأره فكان نصيبهما الفناء والهلاك ، إذ فلق دريد رأس أكبرهما ، وطعن خفاف بن ندبة أصغرهما فى صدره فأرداه قتيلا ، وخارت لذلك قوى الجيش ، وفترت عزائمه ، وانسحب من الميدان ، وطلب كل جيش وطنه .

أما جيش العرب فما زال سائراً حتى مدائن كسرى ، وكان النعمان لا يزال عنده ، وقد جاءته قوات من جند خراسان وقبائل العرب ، ولكن بعد فوات الأوان ، ورحيل الأعداء من الميدان ، وأرسل النعمان الجواسيس من خلفهم ليأتوه بأخبارهم ، وهم عائدون إلى أوطانهم ، فجاءوه بأخبار دريد وعنترة ، وخلاص إخوته والأسرى من أيدى أعدائهم ، فأشرق وجهه سروراً ، وخف فى موكب عظيم للقاء عنترة ، والاحتفاء به ، فلقيه لقاء الأم لوحيدها بعد غيبة طويلة يائسة ، وهنأه بنصره ، وسألهم عن حالهم وعن جيوش الروم والإفرنج ، فحدثه دريد بما فعلوه فى الشام وفى قيصر الروم وقتل ملك الإفرنج وأخويه وهزيمة جيشه ، والرهائن التى أخذوها من قيصر الروم ، ففرح كثيراً ، وفرح بلقاء إخوته الذين أخذوا يحدثونه بما فعل عنترة بن شداد ، ويمدحونه ويذكرون محاسنه ، فقال لهم : إنا لا نجد أشجع منه ولا أكرم ، ولكننا لا نعرف له حقه . ثم أخذهم جميعهم وساروا حتى كانوا فى المدائن ، وقد تلقاهم كسرى بما ينبغى لهم من

مظاهر الحفاوة والتكريم، وقص عليه النعمان ما كان من عنترة وأصحابه، فاستبشر بهم وفرح ، وأجزل لهم عطاياه ومنحه ، واصطفى عنترة لنفسه، واتخذه نديمه . وجعل يرافقه فى غدواته وروحاته ، تقديراً لفضله العظيم عليهم .

وكان ذو الخمار عند النعمان ، لأنه قدم إليه بعد أن خلص من أسره ، وفر من أعدائه تاركاً صحبه ، فرأى ما لعنترة من منزلة سامية عند كسرى والنعمان وأكابر قومهما ، فاشتعل صدره حقداً وحسداً ، وأقسم فى نفسه أن يسعى لهلاك عنترة .

لم يطق ذو الخمار صبراً على ما يراه حيناً بعد حين من تكريم عنترة واحترامه ، فقال للنعمان : لقد وعدتنى أن تصلح بينى وبين دريد ، وأنت ترى ما يحيط به وبعنترة ورجالهما من الحفاوة والتكريم ، ولا أرضى أن أكون بينهم وتتخطانى العيون، وتنبو عنى الأنظار ، وأكون هملا لا قيمة لى ولا اعتبار ، فوعده أن يصلح بينهما ، ونصح إليه أن يصطلح هو وعنترة إن أراد الخير لنفسه ، فمعاداة المرء لمن لا يطيقه جهل وغباء ، واعتراف المرء بما لأخيه من فضل كرم ومروءة ، فاستحيا ذو الخمار من ذلك القول ، وكلفه أن يفعل فى هذا ما يرى ، ولكن ما طبع عليه من الخبث جعله يصر فى نفسه على أن يبارزه ، لتتاح له فرصة قتله .

تحدث النعمان ودريد وعنترة فى شأن ذى الخمار وقال النعمان :

إن المرء منا غير معصوم من الخطأ ، فهو يصيب ويخطىء ، والاعتراف بالخطأ ندم وتوبة ، وينبغى أن يقابل هذا من النفوس الكريمة بالصفح والغفران ، وأنتم تعرفون أن مثل ذى الخمار ينبغى أن يُغضى عن أخطائه لشجاعته وبأسه ، والانتفاع به فى كثير من المواقف ، وقد كان يلح فى مبارزة عنترة لجهله بفروسيته وبطولته ، وقد رضى الآن أن يكون له صاحباً وصديقاً ، يعينه فى الشدة ، ويدفع عنه كل ضيق وكربة . فاستحيا دريد من النعمان ، وأعلن عفوه عن ذى الخمار .

أما عنترة فإنه قال : إنى لا أضمر لذى الخمار إلا كل خير ، ولكنه مع الفئة الحاقدة الذين يتمنون لى رعى الجمال ، وينظرون إلىّ نظرة ملؤها الاحتقار ، وذلك ما لا أرتضيه لنفسى ، وقد صفحت عنه ، وأخبره أنى مستعد لمبارزته متى شاء وأين شاء .

فأعجب النعمان بمروءة عنترة وكرم نفسه ، ثم أحضر ذا الخمار فاعتذر لهما ، وتم الصلح بينه وبينهما ، وجعل يحضر المبارزة بين الفرسان ، أمام كسرى والنعمان وأكابر القوم وأعيانهم .

وذات يوم رأى عمرو بن معديكرب يجول فى الميدان ويصول فبرز إليه ذو الخمار وغلبه ، ثم بارز من بعده عامر بن الطفيل وملاعب الأسنة فغلبهما ، وأعجب به الملك كسرى ، فسأل عنه النعمان فقال : إنه الفارس ذو الخمار ، الذى قاتل بين يديك الروم والإفرنج ، وأسر كثيراً

من فرسانهم وساداتهم ، وحكى له ما كان منه ، وما تم من الصلح بينه وبين دريد وعنترة . فقال كسرى : نعم ما فعلت ، فإن هذا الفارس لا ينبغى أن يفرط فيه ، أو يهمل شأنه ! ثم قربه منه ، ومنحه جزيل هباته .

وفى الغد جال ذو الحمار فى الميدان ثم تقدم إلى عنترة وهو إلى جانب كسرى والنعمان وقال له : وددت لو أفتخر بمبارزتك، لأنك شرف لمن اعترف لك ، وقد بلغت من الشجاعة والفهم ما لم يبلغه غيرك ، وسموت بمروءتك وفضلك ، وبهرت العرب ببلاغتك ، وأود الآن أن أنال شرف مبارزتك .

فوافق هذا هوى فى نفس عنترة، لأنه كان آسفاً لما فعله بعمرو وعامر وملاعب الأسنة ، وكانت الرماح التى فى يد دريد من غير أسنة ، فقال عنترة : لقد وصفتنى بما أنت أجادر به منى وأولى ، ولكن أيها الفارس الكريم ما حاجتنا إلى الدروع ورماحنا من غير أسنة ؟ وأرى ألا نتحصن بالحديد والزرد حتى تكون المبارزة أبهج وأروع ، وكان عنترة يريد بذلك أن يصيبه فى مواطن الخطر حتى يفل من كبريائه ، وحتى يلمس ذو الحمار عجزه ، فلا يضمر شراً لعنترة .

فاستحيا ذو الحمار وقال : والله لن أخرج لمبارزتك إلا عارياً من الدروع .

فقال عنترة : ذلك هو الإنصاف والحق .

ثم نزع عنترة عنه الحديد ، وبرز إليه فى ثوب قصير الأكمام ، وفعل ذو الحمار مثله ، وهجم كل منهما على صاحبه هجوم الليث على فريسته فاقشعرت جلود النظارة من هول ما رأوا ، وحاول ذو الحمار أن يطعن عنترة طعنة تكون القاضية ، فما استطاع ذلك ، وعرف عنترة منه ذلك ، وأنه يضمر له الغدر والهلاك ، فأراه ما أذهله وأعجزه ، فجرد ذو الحمار سيفه ، وطلب به عنترة ، فاشتد غيظه ، وجذب سيفه ، وضربه بصفحته ضربة ألقته على وجهه . وأشفق كسرى عليه ، وخشى أن يجعله عنترة طعمة لسيفه ، فأمر النعمان أن يوقف المبارزة ، حتى لا يضيع فيها ذو الحمار ، ولما هم بالذهاب إليهما طلع عليهم عنترة من جوف الغبار شاهراً سيفه ، فسأله النعمان : أين ذو الحمار ؟

فقال عنترة : إنه ملقى على الأرض يغطيه الغبار ، فقد جرد سيفه وطلب قتلى ، فضربته بصفحة سيفى ضربة أرغمت أنفه ، وحمدت الله إذ لم أعجل بقتله ، وكان من الواجب أن أقضى عليه ، لأستريح من خبثه وغدره . فقال دريد : والله يا أبا الفوارس إن عذرك لواضح ، وقد كنت أود أن يمسى ذو الحمار طعاماً للوحش والطير .

ولما جاء ذو الحمار يتعثر فى أذيال فشله وخيبته قال دريد له : أما حذرتك يا بن العم معارضة القدر ، ومناوأة من لا قدرة لك عليه من البشر؟

فقال ذو الخمار : وما ذنبي إذا كان القدر قد أراد أن تكون قدرتي دون قدرة عنترة ، وما كنت بدعاً من الفرسان فى عجزى بين يديه .

وقال النعمان : إن بينكما من البعد ما بين المشرق والمغرب ، وقد قدر عنترة وعفا ، وداوى القلوب من أمراضها وشفى ؛ ثم ذهبوا إلى كسرى فأمر النعمان أن يصلح بينهما ، وأنعم عليهما بالهدايا الفاخرة .

٦

وبينما هم فى مجلسهم يتحادثون إذ طلع عليهم خيل حجازية ، عليها خمسة آلاف فارس ، كان عنترة قدأرسلهم مع الأسرى إلى الديار ، فسألهم : هل اعتراكم الحارث الوهاب بسوء وأنتم راجعون ؟ فقالوا : أخذ ما معنا من الأموال والأسرى ، وخشينا بأسه ، فطلبنا بالهرب منه النجاة ، وقتل منا عدد قليل ، فطمأنهم على أنفسهم وأموالهم ، وقال : يغلب على ظنى أن قيصر الروم لا ينقض معى عهده ، لأن رهائنه من أكابر جنده ، وسادات قومه عندى ، وما هذه إلا فعلة الحارث نفسه ، أو تدبير من حاشيته ، أو خطل من ثلة فى جنده ، أقدم عليه دون تقدير لمصيره ، وهو لا يزال جاهلاً به ، وأرى أن أتبعه حتى أصلح ما أفسده ، وأريه العذاب

الأوجع ، فأشار عليه دريد أن ينتظر فى قلة من رجاله ، ويرسل بقية الفرسان إلى ديارهم ، وهناك يرسلون إلى الحارث رسلاً يطلبون منه ما أخذ ، ويذكرون له أن رهائن قيصر عندك ، فإن استجاب لهم أطلقت الرهائن ، وإلا فعلت به ما تريد . فأنفذ عنترة الفرسان إلى الديار ، وانتظر ما سيكون وقال لدريد : أرى أن ترحل أنت إلى الديار ، لأننا خلفنا الحريم والعيال عندك فى جبال غزية ، مع أهلك وجندك ، وما سمعنا عنهم خبراً ، وخذ معك مقرى الوحوش فى مائة فارس ، ليأخذ ابنة عمى ، وزوجته مسيكة ، وبقية الحريم ، ويسير إلى أرضنا ؛ فأجابه إلى ذلك ورحل .

رحل جميع الجنود من عند كسرى إلى ديارهم شاكرين له ما أسبغه عليهم من الأموال والعطايا ، ولكنه أبقى عنترة ، حتى يشبع من منادمته ، وكريم ضيافته له ، ثم يسمح له بالرحيل إلى حيث يشاء ، بعد أن يكون قد اتخذه له ناصراً ومعيناً .

وكان حجار قد أعجب النعمان بشجاعته وفصاحة لسانه ورجاحة عقله ، فأبقاه عنده ، وقربه إليه ، واصطفاه لنفسه ، وجعله حاجباً له ، ووعده أن يزوجه ابنته الرباب .

وفى مجلس من مجالس كسرى جعل حجار هذا يثنى على ذى الخمار ويغلو فى الثناء على مسمع من عنترة ، فغضب كسرى وقال : كيف يجرؤ إنسان أن يثنى على فارس مهما يبلغ شأوه أمام الفارس الأوحد عنترة ابن شداد ؟ !

فقال النعمان : وحياة المليك ما سمعنا بفارس يشق غبار عنترة، ولو بلغ من نسبه وكرمه مبلغه من الشجاعة والبطولة، لفاق العرب والعجم قاطبة .

فالتفت إليه عنترة التفاتة غاضبة هادئة وقال: لا تزال فى ضلال القوم القديم ؟! أتجهل إلى الآن أنى ابن شداد كريم الحسب والنسب ، وأن يدى مبسوطة للقريب والبعيد؟! فقال النعمان: لا أريد أن يمسك قولى بسوء، فإنك أحب إلينا من أنفسنا، ولكنى أردت أن أقول: إن من العرب من عرف بكرم النسب ، ومنهم من عرف ببسطة اليد، ومنهم من عرف بالشجاعة .

فقال كسرى للنعمان: اذكر لنا من ساد من العرب بنسبه ، ومن ساد بكرمه، ومن ساد بشجاعته . فقال النعمان : فى عصرنا هذا ثلاثة : أما صاحب الحسب والنسب فعبد المطلب ، وأما صاحب الكرم والجود فحاتم الطائى ، وأما ذو البطولة والشجاعة فعنترة . فقال كسرى : أما عبد المطلب وعنترة فقد سارت بذكرهما الركبان ، وطبقت شهرتهما المشرقين ، وأما حاتم هذا فما سمعت عنه شيئاً ، فهل لك أن تعرفنا به بالتحدث إلينا فيما تعلمه فيه ؟ فقال : ستسمع عنه حديثاً عجباً .

لقد ولد حاتم من أبوين على طرفى نقيض فى الكرم ، فهذه أمه لو سئلت حياتها لجادت بها ، وذلك أب لو طلب إليه أن يفتدى بدرهم لضن به وإن ضيع حياته، وربما عجبت من اجتماع الضدين فى عش

الزوجية ، واستمرار الحياة بها حتى أنجبا حاتما ، وكان فى الكرم لأمه ، ولم يصبه مس من طبع والده ! فقال : نعم ، وإنه لعجب عظيم !

فقال النعمان : ورثت أمه عفيفة عن أبيها مالاً كثيراً، تحاملت عليه بالكرم والسخاء حتى خشى عليها إخوتها الثلاثة الفقر والحاجة ، فاحتجزوا مال أبيها دونها ، إلا بعض جمال ونوق تقتات منها ، فجاءتها امرأة فقيرة من بنى هلال، تستجديها ما كانت تجود به عليها كل عام ، فاعتذرت لقلة ما لديها، وأعطتها ما تملك من نوق وجمال ، فبلغ إخوتها ما فعلت، فأنحوا عليها باللائمة ، وقالوا : لقد سخوت بما تملكين ، وذقت مرارة العدم والفاقة ، فعسى أن تكفى عن هذا السخاء ، الذى يطوح بك فى غياهب الشقاء ، فبكت وقالت : لقد ذقت بالسخاء مرارة الفقر ، فعرفت ما يقاسيه ذوو الفاقة والعدم، فزادنى ذلك إلحاحاً على بذل المال، والحض على إطعام المسكين . فخرج إخوتها غاضبين ، وفكروا فى وسيلة لا تجعل يد أختهم مبسوطة كل البسط ، واهتدوا إلى أن يزوجوها رجلاً من أبخل الناس وأشدهم حرصاً على المال، فزوجوها لسعد بن عبد اللات، ثم رزقت بولد سمته حاتماً، وأرضعته لبان جودها وسخائها، فلما يفع وانتشى ، وآثر الجود والندى ، كان قرة عين لأمه ، وأذى فى صدر والده .

ومن عجيب ما تحدث الناس به ، أن أباه برم بسخائه ، فأحب

أن يجعله فى معزل من الناس ، حتى لا يجد من يعطيه ، فأعطاه جارية جميلة ، وفرساً كريمة ، وقال : يا بنى ! إن جمالنا كادت تهلك من الجوع لضيق المرعى ، فلو أخذتها إلى الوديان ، لخففت عنها وطأة الجوع بما تجده هناك من عشب وكلأ ، فقال : سمعاً وطاعة ، وما إن ضمته الأودية حتى ضاق ذرعاً بها ، وتمنى أن يتخطفه الموت ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ، ولايكون له وجود فيها ، إذ حالت بينه وبين ما فطر عليه من كرم وجود ؛ وبينما هو يتقلب فى نار من قلقه إذ وافاه ثلاثة من شعراء العرب المشهورين، وكانوا عبيد بن الأبرص ، وبشر بن أبى حازم ، والنابغة الذبيانى ، وسألوه زاداً وماء ، فابتسم ابتسامة أشرقت لها أسارير وجهه وقال : لكم عندى فوق ما تشتهون ، فانزلوا واهنؤا بما تجدون ؛ ثم نهض وذبح لهم ثلاث نياق ، فطعموا وشربوا ، وعرفوا أنه كريم النفس مبسوط اليد ، وسألوه : لقد كان يكفينا بعض ما فعلت ؟ فقال : رأيتكم فى أزياء ثلاثة ، فعرفت أنكم من قبائل ثلاث فرغبت أن أكرم كل قبيلة بذبح ناقة، فكلوا ما شئتم، واجعلوا ما بقى للوحش والطير ، فإن الضيف الكريم يحب أن يضيف . فقالوا : نحن من شعراء العرب ، طرقنا كل مكان، ونزلنا على كثير من السادة والأعيان، والملوك والأمراء، فما وجدنا أكرم منك إنساناً، وسنعطر بالثناء عليك فى أشعارنا كل مجلس وناد ، ونملأ بفضائلك البطاح والجبال والوهاد؛ فشكر لهم ثناءهم عليه، ولما

هموا بالرحيل منحهم جميع ما يملك من جارية وخيل، ونوق وجمال ، ورجع إلى أبيه فارغ الفؤاد صفر اليدين، فسأله أبوه عن المال : فقال : جدت به على من يحتاجه ، فأصابه غم عظيم ، وهجر بيته إلى بنى الخزرج ، وعكف حاتم وأمه فى بيتهما ينعمان بالكرم وإعطاء كل ذى مسغبة ، والتنفيس عن كل ذى كربة ، حتى نفد المال ، ولم يجدا ما يمسك الرمق .

ونزل بهما ذات يوم جماعة من بنى هلال ، وهم على تلك الحال من العدم والفاقة ، فقال حاتم لأمه : ماذا أنت صانعة ، وما بقى لدينا جمل ولا ناقة، ولا بد لنا من إكرام هؤلاء الجماعة ؟ !

فقالت له أمه : يا بنى ! الأمر علينا يسير ، تمسك يدى ، وتدور بى على هؤلاء الفرسان لتبيعنى ، ثم تنتفع بثمنى فى إكرامهم ، والله يتولانى فى أيديهم .

فقال حاتم : أنا أقدر منك على ملاقاة الأهوال وأصبر ، فافعلى بى ما كنت راغبة أن أفعله بك ، فصبغت وجهه ويديه ورجليه ، وباعته بناقتين ، ذبحت إحداهما للجماعة ، وبقيت عندها الأخرى إلى حين ، وبعد أن طعموا ارتحلوا عنها ومعهم ذلك الغلام الذى اشتروه منها ، وهو ابنها حاتم ، وبقى فى أيديهم شهراً أو أكثر ، وهو لا يبدى من أمره شيئاً ، حتى زار هذا الفارس الذى اشترى حاتماً رجل من سادات العرب ، فما

كاد يقع نظره عليه حتى عرفه ، وعرف من الفارس كيف جيء به ، فقال : هذا حاتم الطائى ، الذى تعرفه كل قبيلة ، وتعنو له وجوه القوم تقديراً لكرمه وجوده ، وما باعته أمه إلا لحاجة فى نفسها ، لو اطلعت عليها لأسفت على ما فرطت فى جنب هذا الغلام . ثم سألوا حاتماً عن ذلك فحكى لهم قصته ، فأعطاه الذى اشتراه أربعمائة ناقة وجمل ، وشيعه بها إلى أمه فى حفاوة بالغة .

قال عنترة : هذا حديث كله عجب يدل على كرم ومروءة وشهامة .

* * *

وبعد أيام قضيت فى هناءة ونعيم استأذن عنترة فى الرحيل ، فأذن له مودعاً بالتجلة ، مشيعاً بالأموال والمنح السنية .

وجد عنترة ديار بنى عبس خالية من قيس وجنده ، إلا من حامية خلفها وراءه ، لتحرس الأموال والنساء والعيال ، فسأل مقرى الوحوش عن ذلك ، فقال : خرج إلى بنى كلب بن وبرة ، ليخلص ابن أخيه مالك وأمه .

فقال عنترة : ما علمنا لمالك بن زهير ابناً وزوجاً فى هؤلاء القوم ! !

كيف نعلمه وقد مات فى ليلة زفافه وقد كنت معه ! ! وهل يجوز فى عقلى أن يكون لمالك ولد أسير أو مهان ولا أبذل حياتى لإنقاذه ودفع الضر عنه ؟ ! إنى لم أفهم ما تريد ، فاكشف الغطاء عما تشير إليه بقولك هذا ، فقال مقرى الوحوش :

دخل أعرابى اسمه السلال على قيس وهو فى نشوة من فرحته واطمئنانه ، فسلم وحيا ثم جلس مأذوناً له ، ولما قدم له شراب التحية قال : أيها الملك الكريم ، لقد آليت على نفسى ألا أشرب عندك شيئاً حتى أبلغك حديث من بعثنى إليك .

فقال قيس : وما وراءك يا أعرابى ؟

فقال الأعرابى : إنى رجل مغرم بالسرى ، مستعيناً بظلمات الليل فى سرقة الخيل ، فعلمت أن فى بنى كلب بن وبرة جواداً كريماً ، فسعيت إلى منازلهم ، وكان وصولى إليها بعد الزوال ، فجلست عند غدير قريب من تلك المنازل ، لأستريح وأرتقب ظلام الليل ، حتى لا يرانى منهم أحد ، فوجدت مرأة ترعى غنما ، ومعها غلام قطع اثنى عشر ربيعاً ، يتبعها فى سيرها وعليه مسحة من المذلة بادية ، فعثر بحجر آلمه وبكى ، فضمته المرأة إلى صدرها قائلة : لقد كتب عليك أن تشارك أمك فى شقائها ، وأنت لا تزال لدن العود ، غض الإهاب ، غريض الشباب ،

ليتني مت قبل أبيك ، ونعمت أنت بحياته ، فعلمت أنها غريبة ، وأن ابنها يدرج على عينها فى مهاد من اليتم والمسكنة ، فرثيت لحالها وأفضت إليها مسلماً قائلاً : أخبريني ! من أنت ؟ فقالت : إنى غريبة لاسند لى فى هذه الديار ، ولا أجد من يكشف عنى ما أقاسيه ؛ فقلت : من أى العرب أنت ؟ ! ومن هذا الغلام ؟ ! فقالت : إن حرصى على هذا الغلام يمنعنى أن أحدث أحداً عنه ، ولأنك غريب مثلى فقد يكون حديثى معك لا خوف فيه ؛ فأقسمت لها أنى لا أطلع أحداً على سرك ؛ وما سؤالى عنك إلا لأكشف ما بك من سوء بقدر ما أستطيع ، فقد رحمت حزنك وأشفقت على حالك ، وآلمنى ولدك هذا الذى يقاسمك الشقاء . فقالت : إن هذا الولد الذى تراه ابن مالك بن زهير ، تزوجنى أبوه حينما وقعت الفتنة بين بنى عبس وعدنان وفزارة وذبيان ، وفى إغارة عوف أخى حذيفة هربت من الأسر مع النساء وضربنا فى الفلاة سائرات على غير هدى ، وكنت قد حملت بهذا الولد ، ولقينا هؤلاء العرب فأخذونا ، وأقمت فيهم ، ولما وضعته كتمت نسبه ، وأخفيت والده ، وقلت : إنى رزقت به من ابن عمى الذى قضى نحبه ومات مع من ماتوا فى هذه الفتنة ؛ فإذا كنت فى بنى عبس فأخبر قيسا بأمرى ، وقل له : لا ينبغى أن تترك ابن أخيك مالك يرعى الجمال كالعبيد ! ثم بكت حتى أبكتنى ، فقلت لها : إن مضيت الآن إلى قومك أخبرتهم بحالتك وشرحت لهم ما

تقاسينه من شدة وضيق ، ثم ودعتها وجئت إليك ، وقصصت عليك قصة ابن أخيك ، فبكى قيس ومن معه من بنى عمه ، ورمى الكأس من يده وأقسم ألا يشرب حتى يخلص ابن أخيه وأمه ، وشاع هذا الخبر فى الأحياء وتحدثوا به فى كل مكان .

٧

ركب قيس فى ثلاثة آلاف ، وترك فى الديار مقرى الوحوش ليحميها وساروا طالبين بلاد اليمن .

وحضر عنترة بعد رحيلهم بثلاثة أيام وبلغه مقرى الوحوش أن الملك سار فى جنده ليخلص ابن أخيه مالك وأمه وقص عليه قصته ، فرحل عنترة من خلفهم وفاء لصديقه مالك .

وقد خاف على بنى عبس من بنى فزارة وسنان بن حارثة أن يبلغهم نبأ رحيل الملك قيس ورحيله إلى بلاد اليمن فيغيروا عليهم فى غيبتهم ، فأشار عليهم أن يرحلوا إلى دريد بن الصمة أو إلى بنى عامر حتى يعود إليهم ، فقال أبوه شداد : طب نفساً يا ولدى ، فسنكون على حذر ، وسيكون

لنا عيون من حولنا لنتقى بهم مفاجأة الخطر ، ولا يكن عندك خوف
علينا حتى تعود إلينا سالماً .

سار عنترة ومعه مقرى الوحوش وشيبوب ، وسلك بهم شيبوب الهضاب
الموحشة ، والبقاع المقفرة ، ونفق جواد مقرى الوحوش من العطش
فنزل عنترة عن جواده ، وجعلوا يقطعون الفيافى ماشين راجلين ،
حتى نزلوا على غدير بنى باعث ، وكان التعب قد أخذ منهم مأخذه ،
ولما استراحوا وأكلوا وشربوا قال عنترة لأخيه : يابن أم ! إن مقرى
الوحوش لا يستطيع أن يسير إلى بلاد اليمن راجلا ، ولا بد له من جواد ،
فماذا ترى ؟ فقال : أقيموا على هذا الغدير حتى أذهب إلى قوم هنا يقال
لهم بنو صابح وآتيكم من عندهم بما تركبون .

وفى السحر غادرهم إلى بنى صابح ، وكانوا يبعدون عن هذا الغدير
مسيرة نصف يوم، ولما قرب من منازلهم رأى مرعى فسيحاً وفى وسطه قبه
من الأديم تتسع لكثير من الرجال ومن حولها عشرون جواداً مختلفة الألوان .

وصل شيبوب إلى تلك القبة وطاف بها فلم يجد إنساناً ، وحاول
أن يسمع حديثاً داخل القبة فلم يسمع شيئاً ، فعجب لهذا المرأى الغريب ،
ورفع ذيل القبة ودخلها ، فوجد فيها شيخاً نائماً فى ناحية منها ، وبجانبه
أوعية ملأى بالتمر والدقيق والسمن والعسل ، قال شيبوب : فعولت

على أن أحمل بعض هذه الأوعية وأضعها على ظهور الخيل ، ثم أسير
بها إلى أخى وصاحبه قبل أن يجىء صاحب تلك القبة ، وما كدت أهم
بما عزمت حتى رأيت هودجاً على ناقة مقبلة ومن حولها خمسة غلمان ،
فكمنت بين الأوعية ، وقعدت أنتظر قدوم الهودج لأعرف من فيه ،
وكيف كانت هذه القبة فى هذا المرعى. وصلت الناقة فبركت أمام القبة،
ونزل من الهودج امرأة تقارب الشيخ النائم فى عمره ، فدخلت عليه ثم أيقظته
فانتبه وقال : طالت غيبتك يا ابنة العم ، وماذا فعل غرماء ولدك ؟ هل
تركوا له دم أخيهم أو أصروا على القتال ؟ فقالت : لا بد من القتال ،
وإنى خائفة عليه ، فقد دخلت على جارتنا سلمى بنت حازم وسألتها
عما جرى فقالت : لقد عز علينا رحيلكم ، ولقد اهتم جميل مقدم
العشيرة بالأمر وحاول أن يقنع رافعاً أخا القتيل أن يرضى بالدية
حقناً للدماء فما رضى وقال : إنى فى انتظار إخوتى لنأخذ بالثأر
مهما يكن من الأمر ؛ فغضب وتألم ، وهو الآن يخشى أن يتفرق
شمل القبيلة ، ويتصدع بنيان العشيرة ، وقال : ما دمتم قد ركبتم رءوسكم
فلن أدخل بينكم ، لأنكم نسيتم ما لحامية العشيرة من فضل ومعروف ،
فدونكم وإياه ، فلن أحول بينكم وبين حق لكم ، ثم إنه جعل والد البنت
التى كانت سبباً فى هذه الفتنة يرحل من هذه الديار ، وإن أهل القتيل
مصرون على قتل ابنك أخذاً بثأرهم ، فأسرعى إليه وأخبريه بهذا

ولا تتهاونى ، قالت العجوز : فلما سمعت منها ذلك رجعت مسرعة لأخبر ابنى وآمره أن يرحل من هذه الأطلال ، فأين مضى يابن العم ؟ فقال : مضى إلى الصيد ولم يعد ، نسأل الله أن ينصره ، ولا يبتلينا برحيله ؛ ثم اضطجع الشيخ وهو كئيب حزين .

وأقبل من صدر الوادى شاب طويل القامة ، عظيم الرأس ، واسع الصدر حسن الوجه مخضر الشارب ، تشرق فى وجهه أمارات الشجاعة ، وهو متقلد عدة القتال ، وعلى جواد أسود ، يتدفق فى سيره كأنه السيل ، وأمامه ما صاده من غزلان وأرانب وأنواع من وحوش الفلاة ، وهو صاحب القبة وابن ذلك الشيخ وأمه تلك العجوز ، وحامية القبيلة التى أتت أمه منها ، وكان قد أحب بنتاً من بنات الحى ، لها ابن عم خطبها من أبيها وأعطاه مهرها ، فترصد له فى الخلاء وقتله ، وخشى أن يجتمع عليه رجال الحى ويقتلوه فرحل عنهم إلى هذا المرعى ، وكانت أمه تختلف إلى الحى لتأتيه بأخباره ، وكان للقتيل أربعة إخوة لم يكونوا حاضرين حين قتله ما عدا واحداً منهم اسمه رافع ؛ فلما حضر الشاب استقبلته أمه وأخذت تهيئ له الطعام وتحدثه بما سمعت ، وترجو منه أن يرحلوا إلى بعض القبائل ليقيموا فيها هانئين ، فقال لها : لن أغادر هذا المكان حتى أقتل إخوة القتيل .

وجاءه غلمانه إذ ذاك يصيحون ويقولون : لقد دهمنا سبع من سباع الفلاة فشرد الأموال فى القفار ، فوثب قائماً وأخذ سيفه ، وجرى خلف

الأسد الذى شرد أمواله ، والعبيد يجرون من خلفه ليروا ما هو فاعله ، وقال شيبوب : تلك فرصة لتحقيق ما جئت من أجله ، فلأركب الجواد الذى أختاره ، ولأسر إلى أخى وصاحبه ، ولكن أقعده أن رأى الشيخ يحدث زوجته ولا تلتفت إليه ، وتقول : ليس هذا وقت الحديث ، فإن ابنى خرج إلى سبع من سباع الفلاة وإن قلبى ليذوب خوفاً عليه ، فقال : إنه ابنى أيضاً وقطعة من كبدى ، فقالت : والله ما لك فيه قليل ولا كثير . فقال وهو فى عجب من قولها : وابن من يكون أيتها الخاطئة ؟ إنى لأجد كلامك أقرب إلى الحقيقة ، لأنى لا أحس له فى نفسى حنان الأبوة ولا رحمتها ، فحدثينى عن أمره ، ولا تخفى منه شيئاً ، فقالت : أتظن أنه ابنك؟ ومتى أنجب الجبان شجاعاً ؟ إنه ابن شداد بن قراد والد عنترة الذى أذل رقاب الجبابرة . ثم تركته إلى باب الخيمة ، ووقفت شاخصة البصر إلى الفلاة ، تنتظر قدوم ابنها ، فعجب الشيخ وانتظر عودة الفارس ليشكو إليه أمه .

سمع شيبوب هذا الحديث وهو فى مكانه ، فعزم على أن يدبر الحيلة لأخذ هذا الغلام والرجوع به إلى أخيه عنترة ليكون له خير عون فى شدته .

وبعد قليل رجع الفتى وسيفه يقطر دماً ، ومن خلفه غلمانه يحملون الأسد مضرجاً فى دمه ، ففرحت أمه وأحضرت له الطعام الذى هيأته ، وجلس يأكل وأمه إلى جانبه ، ودعا أباه ليأكل معه ، وقال : لا تخف

يا أبي على ابنك أن يموت ، فإن الآجال مقدورة ، ولا يؤخر إنسان إذا جاء أجله ، فقال أبوه : ما فزعت من نزول القضاء بالأجل المحتوم ، ولكنى كرهت أن آكل مع أولاد الزنا ، لأن نفسى تعاف ذلك وتأباه . فأحجم الفتى عن الطعام ، وكان اسمه مازناً ، وقال : ماذا تقول يا أبي ؟ وماذا تعنى ؟! فقص عليه حديث أمه ، فغضب مازن وجرد سيفه وهم أن يقتل أمه ، فقالت : اسمع قصتى أنا أيضاً ، ولا تعجل بقتل أمك فتندم ، فقال : هاتى ما عندك حتى يتبين أمرى ، فقالت :

زوجنى أهلى هذا الشيخ ، ولما أرادوا زفافى خرجت بى أمى إلى الغدير ليلا لتغسل شعرى ، فأقبل فارس إلى الغدير يسقى جواده ، فلما رآنى سل حسامه وأسرنى ، وبعد أن أقمت عنده أياماً استطعت أن أهرب منه وكنت قد اشتملت على جنين ، وهذا الفارس هو شداد بن قراد فارس بنى عبس .

فجرد مازن حسامه وأراد أن يقطع به عنق أمه ، قال شيبوب : فخرجت من مكمنى فجأة وقلت : ارجع أيها الفارس ، فقد صدقت أمك وما كذبت واجعلنى على طعامك هذا ضيفك ، فقال الفارس : ومن أنت يا هذا ؟ ! فقال أنا عبد أبيك شداد ، وأخو أخيك عنترة ، وهو منك قريب غير بعيد ، فقال مازن : وكيف وصلت إلى مكاننا هذا ؟ فقال أراد الله أن أجمع بينك وبين إخوتك وأبيك وأهلك ، ثم قص عليه قصة عنترة والملك قيس وخروجهما إلى بلاد اليمن ، ومجيئه للحصول على جواد لمقرى الوحوش ،

مازن وقد هم بقتل أمه ، وشيبوب يحذره

فعجب مازن وقال لأمه ولذلك الشيخ : قد عولت على أن أذهب إلى أخى عنترة لأكون معه حيث نزل ، فما رأيكما ؟ فقالت أمه : إنى معك حيثما كنت ، وقال الشيخ : لا أستطيع الرحيل لضعفى وأنا راجع إلى حلتى ، وتصحبكم السلامة ، وفى الصباح شيع مازن الشيخ إلى الحلة مع بعض الغلمان وبعض النوق التى منحه إياها، ثم أركب أمه هودجاً وسار بها فى صحبة شيبوب إلى أخيه ، وجعل شيبوب يحدثه عن شجاعة عنترة .

وبينما هم سائرون رأوا غبرة مقبلة ، فظنها مازن لأهل القتيل وقد نفروا ليثأروا منه ، ونظر شيبوب إليها وكان حاد النظر ، فرأى فيها ذا الحمار ، ورأى أخاه عنترة ومقرى الوحوش، فقال : قف مكانك يا مازن، فإن أخاك عنترة وصاحبه مقرى الوحوش أسيران، وقد وقعا فى يد هؤلاء القوم ، فعجب مازن وقال : وكيف يقعان فى أسر جماعة من العرب الذين لا بقاء لهم أمام سيف فارس مثلى، وقد حدثتنى عن عنترة وشجاعته حديثاً جعلنى أعتقد أنه أقوى منى يداً ، وأمضى سيفاً ، وأثبت قلباً ، وأقدر على ملاقاة الجموع ، وإن كانت فى عدد النجوم ؟ ! فقال : إن الذى أسرهما ذو الحمار ، ولا بد أن يكون قد احتال عليهما وخدعهما ، ونصب لهما شباك مكره ، فوقعا فى أسره ، وإنى لقادر على أن أطلقهما من الأسر بحيلة تفوق حيلة ذى الحمار ، فقال مازن : إننى لا أعرف إلا السيف والقتال ، فهات أنت ما عندك يا شيبوب .

٨

وقع لذى الحمار من عنترة من المهانة أمام كسرى ما وقع ، فحلف ألا يسكت عن عنترة حتى يقتله أو يضيع رأسه فيه ، ولما سدت فى وجهه السبل وضاق ذرعاً بعنترة ذهب إلى مكة وجعل يتضرع إلى الصنم الأكبر أن ينصره على عنترة فرأى فى منامه كأن الصنم الأكبر يقول له : قد أجبناك إلى ما طلبت ، وسيقع عنترة فى يدك ، ولكن لا تقربه بالسيف أبداً ، وإنما خذه أسيراً وألقه فى جب برهوت عند بئر حضرموت ليلقى فيه حتفه.

فاستيقظ ذو الحمار من نومه فرحاً ، ورحل فى الصباح إلى بنى حمير ، وكان له فيها تسعة رجال يستعين بهم عند الشدة والبلاء ويطلعهم على مكنون سره ، فجمعهم وحدثهم بما رأى فى منامه ، وكانوا يكرهون عنترة ، ويرجون له كل هوان ومذلة ، فقالوا له : وقد حانت الفرصة ، فإنه خرج إلى اليمن خلف الملك قيس ومعه مقرى الوحوش وشيبوب ، فإذا نحن خرجنا من خلفه ودأبنا فى المسير مسرعين فقد ندركه فى هذا العراء ، وحينئذ نبلغ منه ما نريد ، فقال ذو الحمار : ذلك رأى جميل ، وعلينا أن نفهم القوم أنا خارجون فى طلب الكسب والمال ، حتى لا يعرف وجهتنا إنسان.

وساروا فى طريق عنترة حتى قربوا من غدير بنى باعث ، فرأوا الأبجر جواد عنترة فعرفه ذو الحمار ، وقال لمن معه : إن عنترة عند الغدير وقد

صدقت الرؤيا ، وسنجده قتيلاً أو نائماً أو جريحاً .

وجد ذو الخمار عنترة ومقرى الوحوش غارقين فى النوم فانقضوا عليهما بغتة وأوثقوا كتافهما ، وساقوهما أسيرين ، وذلك قضاء الله الذى لا معقب له .

استيقظ عنترة ومقرى الوحش فوجدا أنفسهما مكتفين مقيدين ، فقال عنترة : ويل لك يا ذا الخمار ! أين العهود والمواثيق التى أبرمتها أمام كسرى ؟ ! فقال : ليس لك عندى عهود ولا مواثيق ، وما فعلت بك هذا عن أمرى ، ولكن الصنم الأكبر أمرنى بذلك ، وما فعلته إلا طاعة لأمر الآلهة ، وقدأمرنى أن أسير بك إلى حضرموت وأرميك فى جب برهوت حتى تسقى فيه كأس الممات ، وبات ذو الخمار وصحبه تلك الليلة على الغدير ، ثم شدوا عنترة على جواده ، ومقرى الوحوش على جواد آخر ، وساروا يقطعون البيد والقفار حتى لقيهم شيبوب ومازن وأمه ، فقال شيبوب : لا ينفعنا القتال ، ولا نجنى منه إلا الهلاك ، وليس لنا إلا المكر والحيلة ، فقال له مازن : دبر ما شئت .

أنزل شيبوب أم مازن من هودجها ، وأمرها أن تقعد باكية حزينة ؛ وتنكر هو فى لثامه ، وفر بجواده إلى ذى الخمار وجماعته ، وعنده صاح باكياً قائلاً : يا وجوه العرب ! يا أهل المروءة والنخوة ! لقد حاق بنا الهوان وأضنانا كيد الزمان ، فهل فيكم من ينفس عنا كربتنا ، فقد قتل رجالنا ، ونهبت أموالنا ، وما معنا إلا امرأة عجوز ، ذاهبة إلى بيت الله

الحرام . فادفعوا عنا هؤلاء الانذال الذين أسلمونا بقسوتهم ووحشيتهم إلى الموت الزؤام ! فقال ذو الخمار لفارس من أصحابه : اسأله عن قصته ، فلما سأله قال : نحن من بنى الريان ، وكنا فى عشرين فارساً ومعنا هذه المرأة التى تراها جالسة حزينة أمام هودجها ، وكانت وجهتنا بيت الله الحرام ومعنا أموال ونذور منها طوق من ذهب ، فنزلنا على مياه بنى صالح ، فركب إلينا مائة فارس وأغاروا علينا فلم يبقوا منا إلا نحن وهذه المرأة ، وقد نهبونا وهربوا ، فقال الفارس : أبشر أيها العربى فسنأخذ بأيديكم ونقتص لكم من أعدائكم ، وإن معنا ذا الخمار بألف فارس فلا يهمنا أن كنا عشرة وهم مائة . فقال شيبوب : لقد سمعنا عن شجاعته وكرمه ومروءته . فحياه الله وحيا صحبه ، ورجع الفارس إلى ذى الخمار وبلغه ما سمع ، فثار غضباً وقال : وكيف أكون هنا وأترك أموالاً ونذوراً تنهب وتسلب ؟ ! وأسرع بجواده إلى بنى صابح وتبعه خمسة من أصحابه ، وبقى لحراسة عنترة ومقرى الوحوش أربعة ، وقالوا لشيبوب : ارجع إلى المرأة وأدخلها فى هودجها وبشرها أن أموال الأعداء صائرة إليكم ، فرجع شيبوب وقال لمازن : إن الفارس الذى كنت أخشى عليك منه قد ذهب إلى قتال بنى صابح ، ولم يبق مع عنترة ومقرى الوحوش إلا أربعة فدونك وإياهم ، فأسرع مازن إليهم وشيبوب من خلفه ، وضرب أحد الأربعة بسيفه فقتله ، وضرب الثانى فقتله ، ثم ضرب الثالث فقتله ، أما الرابع فإنه أدرك أنه

مقتول مثل أصحابه فانفلت هارباً وجرى إلى ذى الخمار ومن معه ، وفك مازن وشيبوب قيود عنترة وصاحبه ، وكشف شيبوب اللثام عن وجهه فابتسم عنترة وقال : ومن هذا الغلام الذى أحسن إلينا على غير معرفة سابقة ، فقال : إنه مازن بن شداد بن قراد . فقال عنترة : ومن فى العرب شداد بن قراد غير أبى؟ ! فقال : ليس فيهم غير أبيك ، وهذا مازن ابنه وأخوك ، ثم أخبره بقصته ، ففرح كل بأخيه فرحاً عظيما ، وعجب مقرى الوحوش كل العجب وقال : يا فرحة أبيك يا عنترة حين نرجع إليه ومعنا ابنه مازن ! ثم ركب عنترة وخف إلى ذى الخمار ومعه مازن وشيبوب .

أما ذو الخمار وصحبه فإنهم مضوا إلى بنى صابح وكان فيهم أخو القتيل ، فبددوا شملهم وأخذوا أموالهم وخيلهم ، وأرغموهم على الهرب والفرار ، وقام ذو الخمار وصحبه بجمع ما غنموا فجاءهم إذ ذاك الفارس الهارب من مازن وشيبوب وقال : التمسوا النجاة لأنفسكم فإن عنترة انطلق من قيوده وأغلاله ، فقال ذو الخمار : وكيف تخلص عنترة من أسره ؟ ! فقال : إن الفارس الذى استرحمنا واستعان بنا ، واستبكانا بشكواه الأليمة حمل علينا هو والفارس الذى معه ، وقتل أصحابى واستطعت أنا أن أفر من بين أيديهم . وإنه الآن آت إليكم على أثرى . فحار ذو الخمار فى أمره ، فقال له أحد أصحابه ، أؤكد لك إن الرجل الذى استجار بنا هو شيبوب أخو عنترة ، فقال ذو الخمار : وما الذى أتى بشيبوب إلى هذا المكان ؟ ! ومن أين عرف أن

أخاه أسير ؟ ! وكيف حصل على الهودج والمرأة ؟ ! فقال : ربما اتفق له ذلك ، وعلى أية حال فإن الأمر يدعو إلى أن نفر لننجو بأنفسنا قبل أن يدركنا عنترة ، فقال ذو الخمار : لن أبرح هذه الأرض حتى أرد عنترة إلى قيوده ، فقال الفارس وكان رائد صحبه ودليلهم : اتبعنى وانج بنفسك ، وإن كنت مصراً على بقائك لتلقى عنترة فإنى تاركك وماض إلى مهربى ؛ ثم ركض جواده فانطلق به فى الفلاة وتبعه بقية أصحابه وبقى ذو الخمار وحيداً ، فخاف أن يكون طعاماً لسيف عنترة ، وانطلق بجواده يجرى خلف أصحابه حتى أدركهم .

وسار عنترة ومازن وشيبوب حتى وصلوا إلى مكان المعركة فلم يجدوا إلا الأموال والغنائم فأخذوا منها ما شاءوا ، ورجعوا إلى أم مازن ، وهناك استراحوا ثم قال عنترة : لولا أنى مشغول بابن مالك وبالملاك قيس ما تركت السير من خلفهم حتى أدركهم وإن غاصوا فى البحار ، والتفت إلى أخيه شيبوب وقال : خذ هذه الأموال وأم مازن واذهب بها إلى الديار ، ثم ارجع إلينا سريعاً ، وسنسير برفق حتى تكون معنا ، فقال : سيروا ما شئتم فإنى سأترك أم مازن وما معها من الأموال عند بنى ذبيان ، وأوصيهم أن يمضوا بها إلى بنى عبس ، ثم أرجع إليكم . وكان ما أشار به شيبوب حتى رجع إليهم وجعل يسلك بهم الطرق التى يختارها إلى بلاد اليمن .

أما قيس ومن معه من بنى عبس فإنهم ساروا مع الأعرابى السلال

صابر بن جفال يسأل أم مجيد عن حقيقة أمرها

حتى كان بينهم وبين القوم مسيرة يوم فنزلوا ليستريحوا ويأخذوا أهبتهم للقتال، وسأل قيس السلال عن عددهم فقال: إنهم يبلغون خمسة آلاف، وبعد أن استراحوا استأنفوا سيرهم ، ولما قربوا من الديار رأوا عشرة فرسان على تل مرتفع، لووا أعنة خيلهم إلى الوراء حين رأوا بنى عبس . فقال قيس : إن صدق ظنى فهؤلاء الفرسان طلائع القوم .

فقال السلال : ستلقون القوم عند المساء فخذوا أهبتكم واستعدوا للمعركة.

٩

كانت أم مجيد بن مالك التى أنفذت السلال إلى بنى عبس جالسة فى المرعى تربت على ظهر ولدها مجيد، فنامت بجانبه بعد أن غرق هو فى نومه ، فخرجت سيدتها وكانت حمقاء مستكبرة فألفتها نائمة . فأمسكت عصا وضربتها على رأسها فجرحتها وأسالت دماءها وقالت : كيف أقول لك أحضرى اللبن وأخرجى الزبد منه ثم تهملين وتنامين ؟ ! فبكت أم مجيد وبكى هو لبكائها ، فآلمها بكاء ابنها، فصبرت وتجلدت ومسحت دماءها وقالت : صبراً يا بنى ، فعما قريب يأتى أعمامك ويخلصونك من هذا الشقاء واليتم الأليم ، ويأخذون بثأرك من كل عدو لئيم ، فسمعتها مولاتها واستعاذت منها وصبرت حتى جاء زوجها صابر بن جفال ! فحدثته بما سمعت من أمته، فبدت عليه أمارات الاضطراب والجزع وقال :

والله إنى لأشد الناس خوفاً على الأهل والعشيرة من هذه المرأة ، فإنها حرة كريمة ، ولها أهل لا طاقة لقومنا بهم ، وابنها هذا من رجل قومه ذوو بأس شديد ، ولا بد أن أسألها لأكشف أمرها الليلة ، وأعرف ما ترمى إليه من قولها .

أحضر صابر بن جفال أمته بين يديه وقال : أخبرينى عما تقصدين من قولك لولدك : إن فرج الله قريب ، وعما قليل يأتى إليك أهلك ، فكيف يكون ذلك ؟ وإن لم تخبرينى ذبحت ابنك فى حجرك وكويت عينيك ، ثم أضجع ابنها بين يديها ووضع السيف على عنقه ، فخافت على ابنها ، كما خافت أن تباع فتنقل إلى أرض أخرى ، وإذ ذاك يأتى بنو عبس فلا يجدونها ، فيهدم ما بنته ، ويضيع ما دبرته للرجوع بولدها إلى بنى عبس أعمام ولدها ، فقالت لزوجها : عاهدنى على أن أكون آمنة ، وسأقص عليك قصتى ، فعاهدها على أن تكون آمنة على نفسها وابنها ، فقالت : إن هذا الولد ابن مالك بن زهير وعمه الملك قيس ، وحدثته كيف قتل أبوه ، وكيف أسرت ، وكيف أنفذت إلى بنى عبس ليخلصوها من ضيقها ، فقال : ما أعظم صبرك ! وما أقدرك على كتمان أمرك ! ثم تركها وذهب إلى مقدم القوم ، وكان اسمه طلائع بن الصباح ، وهم من بنى كلب بن وبرة ، وملكهم حسان ابن الملك مسعود بن مصاد الذى قتله عنترة ، فقال له : احفظ الولد وأمه ، وسأكتب إلى الملك حسان بذلك ، لأنه مصر على أخذ الثأر

لأبيه من بنى عبس ، وكتب طلائع إليه بذلك وأرسل إلى بنى الأشجع وبنى الحكم وبنى حذيفة ، ولبث ينتظر ما يكون .

رجع صابر إلى أمته فوضعها وابنها فى القيود ، ورأت ما حل بها من هذا الغدر الأثيم فأيقنت أنها هالكة ، ولكنها لم تيأس من رحمة الله ربها فجعلت تضرع إليه أن ينجيها من القوم الظالمين .

كان فى الحلة بطل كريم اسمه بدر بن شكر ، وكان يحب أم مجيد محبة رحمة ومروءة ويود لها كل خير ونعمة ، ويأسف لما هى فيه من مذلة وشقوة ، وكانت جميلة كريمة الخلق راجحة العقل ، وظنها أمة فأعرض عن الزواج منها ترفعاً وتكبراً ، ولما بان أمرها وعرف أنها حرة عربية وأنها كانت زوجة لابن ملك عربى كريم ندم لامتناعه عن الزواج منها ، ثم أصر على أن تكون له زوجة ، فبعث إليها أمة من إمائه يقول لها : لقد كفلت لك خلاصك من هذه المحنة القاسية ، وأن أردك وولدك إلى أهلك وقومك ، على شرط أن تكونى لى زوجة ، فماذا تقولين ؟ وكانت أم مجيد تود أن يكون ابنها بين أعمامه ، وليكن ما شاء القدر فيها ، وكان هذا كل أملها فى دنياها ، فأجابته إلى رغبته قائلة : إنه ليسعدنى أن أكون لبدر زوجة على شرط أن يرد ابنى إلى أهله . ونقلت الأمة إجابتها إليه فصبر حتى جاء الليل ، وأرسل عبداً من عبيده كان يصطفيه لأسراره بثلاثة جياد إلى مكان معين فى الخلاء أرشده إليه ، وقال له انتظرنى حتى آتيك فيه .

وفى الليل ذهب إلى بيت صابر فوجد أم مجيد وابنها فى خيمتها ، وفك بدر قيودها وقيود ابنها وانسل بهما فى ظلام الليل إلى المكان الذى ينتظره فيه عبده ، فأركب كلاً جواده وسار إلى أرض الحجاز . ولما طلع النهار وجد صابر أن أمته قد هربت هى وابنها فخاف من طلائع مقدم القبيلة ، وأخذ أربعة من أصحابه الفرسان وخرج بهم إلى البيداء لعله يعثر عليها أو يدركها قبل أن تبعد عن الديار ؟

ورأى الفرسان العشرة خيل بنى عبس مقبلة كالبحر الهائج فرجعوا مسرعين وأخبروا طلائع ، وباتت القبيلة تموج موج البحار حتى أشرق وجه النهار .

التقى الجمعان ودارت رحى الحرب على أشدها . ولقى قوم طلائع من الويل ما أفزعهم وردهم عند المساء إلى خيامهم سكارى من هول ما وجدوا من بنى عبس . فقال طلائع : إن لم تدركنا القبائل التى أرسلت إليها أكلتنا سباع بنى عبس ، وما بقى منا أحد ، وأرى أن نعطيهم الجارية وابنها ليرحلوا عنا ، ونقى أنفسنا شرهم وبلاءهم ، فقيل له : إن الجارية هربت هى وابنها ، وخرج سيدها فى طلبها ولم يعد ، فضاق صدره واضطرب وقال : وكيف هربت ؟ ! فقالوا : أخذها بدر بن شكر وهرب ، فما لها ذنب فى هربها ولكن الذنب ذنب بدر بن شكر ، وساعده على ذلك أبناء العجوز الذين أطلقوا غادراً السلال من أيدينا . فقال طلائع إن هذه العجوز ماكرة محتالة : وقد نشأت أولادها على طباعها ، ولا تزال القبيلة

تقاسى الأمرين منها ومن أبنائها . وبلغ العجوز ما قاله طلائع فيها وفى أولادها فقالت : إن طلائع ما قال هذا فينا إلا لعجزه وضعفه ، وإن لم أفرق شمل هؤلاء المغيرين من بنى عبس ، وقعنا فى أيديهم أسرى ، وقتلوا رجال الحى وسبوا نساءه ونهبوا أمواله فاسمعوا يا أولادى ما أقول : اذهبوا إلى بيت صابر بن جفال واكمنوا عنده ، وترصدوا مجيء غادر السلال ، فإنه آت إلى هذا البيت ليخلص الجارية وابنها وينقلها إلى بنى عبس لينال الحظوة عندهم . فإذا حضر فأمسكوه وائتونى به .

وفعل أبناؤها ما أمرتهم به ، وجاء غادر بالليل فأمسكوه وساروا به إلى أمهم ، فقالت : اذهبوا به إلى طلائع ، واطلبوا منه أن يحارب الأعداء غداً ، فإن غلبهم فذلك ما نرجوه ، وإلا فإنى سأدبر لهم مكيدة تمزق جمعهم وتجعل ملوكهم وأمراءهم أسرى فى أيدينا ، ولما ذهبوا إليه ومعهم غادر السلال فرح وأمر بحبسه مقيداً حتى ينكشف أمر القتال ، وقال : ما دامت هذه العجوز وأمثالها فى قبيلة فإنها لن تغلب ، ولن يحل بها الهوان !

وفى ضوء النهار اشتبك الفريقان وجالت سيوف بنى عبس فى رقاب الأعداء وحل بهم الويل ، وجاءهم المساء وهم فى البلاء المبين ، وجعل طلائع يلوم رجاله فقالوا : لا تلمنا واذكر ما فعله بنو عبس فى قبائل اليمن من قبل ، فهؤلاء مردة من الجن لا أناس من البشر ، ويكفيك منا أن نقف فى وجوههم مدافعين حتى يأتينا المدد

من القبائل ، وبعد ذلك نغلبهم بكثرة العدد .

وجاءتهم العجوز فشكوا لها ما نزل بهم من البوار فقالت : ما جئت إلا لمعونتكم ، ثم أمرت طلائع أن يرسل معها مائة فارس لتكمن بهم فى مكان قريب من بنى عبس ، فأحضر لها المائة وسارت بهم وهى فى لباس الرجال ، وكمنوا فى المكان الذى اختارته ومضت هى إلى الملك قيس ، فقال لها : ما وراءك يا وجه العرب ؟ فقالت : جئتك مستعيناً على أن ترحم ضعفى وتطلق أولادى من أسرهم ، فقال قيس : بين لى ما تريد وأبشر بكل خير ، فقالت : إن السلال الذى بلغكم خبر مجيد وأمه ، كان قد جاءنا فى سرقة جواد فلما قبضوا عليه شفعت عندهم فيه وأطلقته وشيعه أولادى ،وأرسلناه إليك ليخبرك بخبر أم مجيد، ولكنها كانت قد قصرت فى خدمة سيدتها فضربتها ضرباً أليماً ، جزعت له أنا وأولادى ، فذهبوا إلى بدر بن شكر وقالوا له : سنطلق الجارية وابنها لتأخذها وتمضى بها إلى قومها بنى عبس، وكانت الجارية قد أطلعتهم على أمرها وأنها أرسلت إليكم السلال ليطلبكم إلى خلاصها ، ولما أنزلتم بالقوم هذا البلاء طاب مقدم القوم الجارية وابنها ليذبحهما ويرمى إليكم رأسيهما فوجدهما قد هربا ،وأن سيدها صابر بن جفال خرج فى طلبها ، وجاء السلال الآن ليخلصهما فقيل له إنهما قد هربا وإن سيدها فى طلبهما ، فقال : سألبث فى الحى متنكراً ، فإن رجع بهما سرقتهما وذهبت بهما إلى الملك قيس ، وإن لم

يرجع بهما بقيت بين القوم لأطلع على أحوالهم ، ومن سوء الحظ أن الناس قالوا للملك : إن أولادى هم الذين سرقوهما وأنفذوا بهما بدر بن شكر إليكما ، فقبض مقدم الحى عليهم وحبسهم عنده ، ومن تمام المصيبة أن صابراً رجع بالجارية وابنها فأخذهما طلائع وهو ينتظر قدوم النجدة له من القبائل، ثم يذبحهما و يذبح أولادى معهما لأنهم خانوه وساعدوهما على الحرب ، ففزعت حين بلغنى ذلك ، فقال السلال : لا خوف عليهم فإنى أخلصهم إن فعلت ما آمرك به، فقلت : وماذا تريد أن أفعل ؟ فقال : أن تلبسى لباس الرجال وتذهبى إلى الملك قيس فى هيئة فارس وتطلعيه على ما جرى وتعطيه هذه العلامة ، وبعد ذلك ترجعين من عنده فى عشرين فارساً من أبطال بنى عبس، وستجدينى فى مكان كذا وقد حملتهم بقيودهم ونقلتهم إلى هذا المكان ، خلف هذا الجبل ، فإذا وصلت بالفرسان حملوهم على ظهور خيلهم ورجعوا بهم إلى الملك قيس ، وبعد هذا يكون القتال الذى لا يبقى من الأعداء أحداً .

ففرح قيس وقال للربيع : ذلك خير ما نفعل ، ولقد أحسنت إلينا هذه العجوز والسلال ، فقال أحد أصحابه : لو كان هنا عنترة لبعثناه فى الفرسان العشرين ، فاغتاظ الربيع وقال : أليس فى القوم من يفوق عنترة ؟ إنى ذاهب فى العشرين فارساً وسترون منى العجب العجاب ! فأرسل الملك الحارث فى عشرين فارساً وفيهم عمارة والربيع ، وسارت بهم

العجوز حتى كانت عند فرسانها ، فعوت كالذئاب وكان ذلك علامة
منها على أن يخرجوا من مكمنهم ويقبضوا على من معها من الفرسان ،
فخرجوا إليهم ودارت الحرب بينهم وقتل من الفريقين من قتل ، وأسر الربيع
وعمارة ، وذهبت العجوز بالأسرى إلى المقدم طلائع نفرح بهم ، وانتظر
قيس رجوع الفرسان ولما لم يعودوا قال : ما أظن إلا أن هذه العجوز
قد احتالت علينا وخدعتنا ، فقيل له : وكيف تحتال وما سمعنا منها
إلا ما يقبله العقل ولا يمجه ؟ فقال : إن الزمن يأتى بما لم يكن فى
الحسبان . ثم انتظروا حتى الصباح .

وفى ضحوة النهار جاءهم الأعداء شاهرين أسلحتهم وهم يقولون :
ويل لكم يا بنى عبس ! لا تظنوا أنكم تأتون اليمن مرة ثانية ثم ترجعون منها
منتصرين ، إن فرسانكم قد أسرتهم العجوز ، وستلقون منا ويلاً وثبوراً .
وخطب فيهم قيس بن زهير وحضهم على القتال وحذرهم عار الهزيمة ،
وسبقهم إلى الميدان فتبعوه مستبسلين ، وكانوا ناراً حامية على الأعداء
فتكت بهم ، وردوهم إلى خيامهم مهزومين ، وصاحت نساؤهم وعيالهم فى
خيامهم من الخوف ، وجاءهم بنو الحكم إذ ذاك فى ألف فارس فدفعوا
عنهم بلاء بنى عبس وردوهم إلى الخلاء ، وكان الليل قد أقبل فأغمدوا
سيوفهم إلى الصباح ، وفى تلك الليلة جاءهم بنو الأشجع فى ثلاثة آلاف ،
فأخبروهم بما وقع فيهم وما فعلته العجوز بفرسانهم ، فطمأنوهم وقالوا :

غداً نرد كيدهم فى نحورهم ونجعل المنايا تأكلهم أكلاً ، ثم سألهم طرفة
سيد بنى الأشجع : كم عندكم من الأسرى ؟ فقالوا : عندنا ثلاثون
أسيراً ، فقال : غداً نحلق رءوسهم ونجعلهم فى صدر الجيش ، لنلقى فى
قلوبهم الرعب ، ونزعزع ثباتهم ، وقال طلائع : وسيأتينا غداً حسان بن
مسعود وجنوده ليثأر لأبيه منهم . فقال طرفة : وأين عنترة الأسود ؟ أوقع
فى أيديكم أسيراً أم لا يزال فيهم يقاتل ؟ فقال : إنه لم يكن معهم فى هذه
الحرب ، وقد سألت عنه بعض الأسرى فقالوا : إنه عند كسرى ، وما علم
بمسير بنى عبس إلى بلادنا . فقال طرفة : لقد حزنت لغيبته فقد رأيت فى
المنام أنى قتلته ورفعت رأسه على سنان رمحى وقدمته هدية إلى حسان بن
مسعود ، وقلت له : هذا قاتل أبيك ! وعسى أن يلحق بهم وتصدق
رؤياى فيه . ثم أمر الكتائب أن تحيط ببنى عبس ففعلوا ، ورأى بنو
عبس أنهم قد أحيط بهم ، وأن الأعداء قد كثر عددهم وزادوا قوة وثباتاً ،
ففزعوا وندموا أن جاءوا إلى بلاد اليمن وألقوا بأنفسهم تحت سنابك خيلهم ،
وتذكروا أهلهم وأوطانهم ، فجعل قيس بن زهير يحضهم ، ويريهم أن
المجد فى أن يموت الإنسان كريماً مدافعاً عن نفسه محاولاً أن يغلب عدوه
وقال : سأكون أول من يخوض ميدان المنايا ومعى ابنى زهير ، فإن أقدمتم
فى ثبات واستبسال كان النصر فى سيوفكم ، وما زال يحثهم وينفرهم من عار
الاستكانة والهزيمة حتى قالوا : لا يهمنا كثرتهم ، وسنلقاهم ثابتين ولا بد أن

تعبث برءوسهم سنابك خيلنا . وفى منتصف الليل رأوا رجلاً مقبلاً من ناحية أعدائهم ، وهو يجرى نحوهم فأسرعوا إليه وأحاطوا به فألفوه شيبوباً ففرحوا به وأخذوه إلى الملك قيس ، فانكشف عنه الغم برؤيته وقال : الحمد لله لقد جئتمونا ونحن فى أشد الحاجة إليكم ، ولولا قدومكم لأصبحنا من الهالكين ، فقال شيبوب : والله إنى لا أعلم أين أخى ، ولقد ظننته فيكم هو ومقرى الوحوش ومازن ، فقال قيس : ومن مازن هذا ؟ ! وكيف فارقت أخاك يا شيبوب ؟ ! فقص عليهم شيبوب ما حدث لهم ، وكيف وجد المنازل خالية منهم ، وكيف جاء ليدركهم ويساعدهم ، وما وقع له فى طريقه من ذى الخمار ، وقصة مازن ، ثم قال : ولولا أنى عثرت بزوجة أخيك مالك أم مجيد وابنها ، لأدركت أخى قبل أن يبعد فى الطريق ، ولا أظنه إلا ضل السبيل وتاه فى البيداء هو ومازن ومقرى الوحوش ، فقال قيس : لقد سمعنا منك أن الذى عاقك عن الوصول إلى أخيك أم مجيد وابنها ، فحدثنا حديثها فقد بلغنا أنها هربت وما صدقنا وقد وقعنا بسببها فى حيلة لعجوز اسمها عدوة ، ولولا تلك الحيلة لغادرنا بلاد اليمن قبل أن تحيط بنا هذه الجموع من الفرسان . فقال شيبوب : رأيت فى وادى الدوح امرأة تنادى : يالعبس ! أما جاءكم رسولى ؟ أما شرح لكم ما أنا فيه من بؤس ، وما فيه ابنكم مجيد من مهانة اليتم وذله ؟ ! فذهبت إلى ناحية الصوت وجعلت أقترب حتى رأيتها فعرفتها ، وأيقنت أنها زوجة أخيك ، لأنى كنت

أعرفها من قبل ؛ ووجدت عندها من هرب بها يقاتل خمسة من الفرسان ، فقتل منهم اثنين ، أما الثلاثة فقد أحاطوا به وأثخنوه جراحاً بسيوفهم ، فأقبلت على أم مجيد وعرفتها بنفسى وذكرت لى قصتها ، فذهبت إلى بدر ابن شكر ، وقلت له : خل عنك هؤلاء الأنذال ، ثم أرسلت نبلة إلى أحدهم فقتلته ، وفرح بدر بذلك فنهض ووثب على الثانى فقتله ، أما الثالث فإنه لاذ بالفرار فأدركته وقتلته ، وقد فرحت أم مجيد وابنها وفرح بدر بن شكر بهذا النصر العظيم .

فقال الملك قيس : لو علمنا يا شيبوب أن أم مجيد قد خلصت من الأسر هى وابنها كما حدثتنا ما صبرنا فى هذه البلاد حتى حشرت الجنود فيها لهلاكنا على نحو ما ترى ، ولا أدرى ماذا نفعل وكيف نلقى هذه الألوف من الرجال .

فقال شيبوب : طاولوهم فى القتال وداوروهم وانحازوا فى وقت الشدة إلى هذا الجبل لتتخذوه لكم معصمًا حتى أعود إليكم من بين هذه التلال ، ومعى أخى عنترة ومقرى الوحوش ومازن ، فقال قيس : لا تبطئ يا شيبوب ، فأنت ترى الآن ما نحن عليه من الضيق وسوء الحال . فقال شيبوب : سأرجع إليك سريعاً ومعى أخى وأصحابه ، ثم انفلت يجرى فرآه حرس الأعداء ، فطلبوه بخيلهم فما شقوا له غباراً ، فرجعوا متعبين قائلين : ما هذا إنسان ، وما هو إلا مارد من مردة الشياطين ! وجاء الصباح

واضطرمت نيران الحرب ، وجعل بنو عبس يصلونها حامية والأعداء من حولهم فرحون بنصرهم، ونادى طلائع : أين حسان بن مسعود ليرى ما حل بالقوم الذين قتلوا والده ، وانتصف النهار والمنايا تحوم على بنى عبس وأيقنوا أنهم سيسقون شرابها بعد قليل . ولكن غباراً ثار من خلف الأعداء وكان لثلاثة فرسان قادمين ، وما كانوا إلا عنترة ومقرى الوحوش ومازناً . وظن الأعداء أنهم طلائع جيش حسان بن مسعود وقال بعضهم : لا أظنهم إلا من أعدائكم ، وقال رجل منهم : ما هؤلاء إلا عنترة بن شداد وصحبه ، فضحك طلائع وسخر من قوله ، وما كاد يشبع نفسه بضحكه، وسخريته حتى رأى جنوده تجز رقابهم جزاً ، وتحصد أرواحهم حصداً ، وحتى سمع صياحاً من المغيرين : جاءكم عنترة بن شداد ، وما لكم من سيفه منجاة ولا مهرب . ونظر إلى الجند وهم يلوذون بالفرار ، فخاف طلائع على نفسه وكان من الهاربين ، ووقف شيبوب على أكمة عالية وصاح قائلاً : يا كلاب اليمن ، خلوا نساءكم وأولادكم وأموالكم وانجوا بأنفسكم قبل أن يحصدكم عنترة بن شداد ، وهذه جيوش حسان بن مسعود قد تساقط أكثرها تحت بريق السيوف والأسنة ، ورجعت خاسئة مهزومة وهذا رأس حسان بن مسعود على سنان الرمح شاهد على فنائه .

فرت جيوش الأعداء وانكشفت الغمة عن بنى عبس، واجتمع الملك قيس بعنترة ومقرى الوحوش ومازن وشيبوب وكبار قومه وقال : ويل للعشيرة

من بعدك يا عنترة ! لا أذاقنا الله المذلة بفراقك ! فقال عنترة : لن تجدوا ضيما ما دمت حياً ، فإن جاء الأجل فالأمر للواحد القهار ، ثم حكى لهم ما فعله بحسان بن مسعود وجيشه ، وعرفهم بمازن أخيه ، ففرحوا به فرحاً عظيما .

أما طلائع فإن قومه اجتمعوا به ليلا وقالوا : لقد كنت خارج المعمعة ، فكم كانت النجدة التى جاءت لبنى عبس ؟ فقال : ما رأيت غير ثلاثة من الفرسان وفيهم فارس أسود لو سلط على أمة لفتك بها ، وجعل يجز الرقاب جزاً ويقول : هذا رأس حسان بن مسعود الذى كنتم تعتمدون عليه ، وكأن بنى عبس خافوا من حسان فأرسلوا إليه ثلاثة منهم فقتلوه وشردوا جيشه ، فجزع القوم وقالوا : لا ثبات لنا أمام هؤلاء الشياطين ، فلنعتصم بالجبال ولنطلب النجدة من القبائل التى تبغض عنترة وقومه ، فقال طلائع : وهل تظنون أنكم تغلبون وإن اجتمعت معكم قبائل العرب فى ميدان واحد ؟ ! إن بنى عبس لن يغلبوا ما دام فيهم ذلك العبد الأسود المسمى عنترة ، وأرى أن نحضر أسراهم ، ونطلق سراحهم على أن نكون آمنين على أنفسنا وأموالنا ، فإن عاهدونا على ذلك فقد عصمنا أنفسنا وديارنا من كل شر ، فرضوا بما أشار به فرحين وأمروه أن يفعل ما يختار ، ولما أحضرهم بين يديه قال لهم : لقد هزمنا أمام جيوشكم ، وحرضنا كثير ممن يبغضونكم على قتلكم ، لنشفى غيظ قلوبنا من قومكم

ومن عبدكم الأسود المسمى عنترة ، ولكنى آثرت المعروف والمغفرة ، وما أريد إلا صلحاً وسلاماً ، على أن أخلى سبيلكم مكرمين ، وأن تكفلوا لنا الأمان على أنفسنا وأموالنا ، فماذا أنتم قائلون ؟ فقال الربيع : ما أردت إلا الخير ، وهذى يدى لأعاهدك على أن تكون آمناً ما حييت ، وقال الحارث : ولن ننفذ أمراً حتى تأتينا بالسلال وتطلقه ، فأحضره إليهم وفك رقبته . وقال عمارة : والله إن البقاء فى قيود الأسر بل إن ضرب الرقاب أهون على نفوسنا من هذا العتق الذى ما أعطيناه إلا مخافة من عنترة ، فقال الربيع : خرس لسانك يا عمارة ، فوالله لولا عنترة ما بقى من بنى عبس أحد ! ثم منحهم طلائع الحلل السنية والخيل العربية والأسلحة الهندية ، وودعهم سالمين .

كان عنترة فى الصباح يتهيأ لتخليص الأسرى من هؤلاء الأعداء المهزومين ، ولكنه وقومه رأوهم قادمين ، فتلقوهم فرحين ، وعانق الربيع عنترة وقال له : لا زال سيفك يابن العم يذل الرقاب ، ولا زالت وجوه الأعداء تعنو لهيبتك ، ولولا سيفك ما نجونا ، فلا تؤاخذنا بجهلنا وقاك الله كل مكروه . فتبسم عنترة ضاحكاً ، وعجب لإنسان لسانه فيه اللين والعذوبة ، وقلبه فيه الحقد والكراهية .

ثم حكى الربيع ما كان من طلائع فى إطلاق سراحهم فقال عنترة : لقد حميتَ هؤلاء الأنذال ، ولو رميتَ قولهم ، وصدفتَ عن حمايتهم

لجعلتهم وأموالهم غنيمة لكم ، فقال الربيع : لقد دفعنى إلى ذلك رغبتنا فى الخلاص من أيديهم ، ومخافتنا أن يلاقيكم من حوادث الزمن ما لم يكن لكم على بال ، فإنهم كانوا قد عزموا على أن يعتصموا بالجبل ويستنفروا الأعداء لنجدتهم ، وبلغنا أن أخاك شيبوبا خاص مجيدا وأمه ، وتركهما فى شعاب الجبل من غير حماية ، فخفت أن يقعا فى أيديهم أو يأخذهما عدو عابر من الأعداء ، فقال عنترة : ما أراد ربك إلا الخير . ثم أذن الملك قيس بالرحيل ، فشدوا رحالهم ورجعوا إلى ديارهم منتصرين فرحين ، ولكن عمارة ود لو انشقت به الأرض ولم يكن قد أطلق من أسره على يد عنترة ، ولما وصلوا إلى ديارهم فرح القوم بقدومهم ، وهنأوهم بسلامتهم ، وفرح قيس بابن أخيه ، وفرح عنترة بابن صاحبه وحاميه ، وطلب من الملك أن يكون منزله بجانبه فأجابه إلى رغبته ، وأعلن عنترة فى غلمانه أنهم وما يملكه ملك لمجيد بن مالك .

١٠

وخرج الملك قيس يوماً إلى مراعيه فسره خصبها وكثرة مياهها ، ثم سار فى البيداء للصيد فرأى ظعناً عابراً فبعث إليه نائلاً يتعرفه ، فطلبهم نائل

بجواده وكانوا قد رأوا العقاب راية الملك ، فقال بعضهم لبعض هذا قيس بن زهير سيد بنى عبس وعدنان، وهذا القادم إلينا رسوله. ومن الخير لنا أن ننزل فى أرضه ، وننعم بجواره وكرمه ، ولما وصل إليهم الرسول سألهم : من تكونون يا وجوه العرب ؟ فقال شيخهم : نحن من بنى بشر بن جهينة ، جئنا من ديارنا لننزل فى ضيافة الملك قيس وجواره ، لأن الزمان قد غدر بنا وضن علينا وكثر أعداؤنا وأردنا جواراً آمناً كريماً ، فقال : لكم البشرى ، والمنزل الآمن الكريم .

ورجع نائل إلى الملك وأخبره فقال : الحمد لله الذى من علينا بالخصب وبسطة الرزق وسعة النعمة، فارجع إليهم وادع شيخهم لأسمع منه ما يقول .

وكان شيخهم يدعى وضاح بن المحيا، فاختار جماعة من أعيان قبيلته ووجوههم وساروا مع نائل إلى الملك قيس فقال : أيها الملك الهمام ، أردنا مربعاً فى دياركم ننزل فيه وطمعنا فى جواركم وحمايتكم ، فقال قيس : لكم ما أردتم على الرحب والسعة ؛ ثم رجع بالقوم جميعهم إلى مكان من مراعيه غنى بخصبه ومائه ، فنزلوا فيه وأقاموا هانئين ، وكان بينهم وبين بنى عبس ألفة ومودة ، وكان يختلف إلى غدير هناك بنات بنى بشر وبنى عبس ، فيجلسن عنده للحديث واللعب والمرح ، وكان مجيد بن مالك يأتى إليهن ويشاركهن اللعب والمرح ، وكان لسيد بنى بشر بنت جميلة اسمها أسماء واسعة المعرفة بأخبار العرب وأشعارها ، وسمعت من البنات حديثاً عن

مجيد وفصاحته ، فاستأذنت أمها وأباها فى الخروج إلى الغدير مع بنات عمها فأذنا لها .

لبست أسماء أفخر ثيابها وخرجت إلى الغدير مع بنات عمها ، وبعد قليل حضرت بنات بنى عبس فأعجبن بجمالها، وفرحن بمجيئها ، فقالت : ما جاء بى إلى الغدير إلا رغبتى فى الجلوس معكن ، وطمعى فى أن ألتقى بذلك الغلام الذى يحكى أخبار العرب وأشعارهم لكن ، وقد أحببت أن أقف على مدى معرفته ومبلغ فصاحته ، غيرة منى على كلام العرب أن يغزوه دخيل من لسان آخر ، ولا أدرى أيسعدنى حظى بقدومه اليوم أم لا؟ فقلن لها : ذلك موعده ولن يعوقه عن الحضور عائق ، وإن تأخر أرسلنا فى طلبه ، لنرى ما يكون بينكما من الحديث . وأقبل مجيد على جواد أدهم ، وعلى رأسه عمامة مطرزة بالذهب وبيده سيف محلى بالجوهر ، فاستقبلنه فرحات وقلن له : لقد كنا فى انتظارك ولو تأخرت لأرسلنا إليك من يطلبك. فلما رأى أسماء أحبها واستراح لها وقال : شرف بك الغدير وأشرقت نواحيه ، ونرجو أن تمنى عليه بالزيارة من حين إلى حين ، فقالت : لقد سمعت عنك ما رغبنى فى لقائك ، ولقد رأيت الآن فوق ما سمعت ، فطابت لك النفس وهنئ بك القلب . ثم أخذ هو وأسماء يتناشدان الأشعار ، وقضى معهن يوماً فى أكل وشرب ولهو ولعب ، ثم انصرفن على أن يجتمع بهن عند الغدير فى صباح الغد . وكانت أسماء قد علق فؤادها

بمجيد كما قد علق قلبه بها ، وقالت أسماء : لو أننا أضرمنا ناراً وشوينا عليها لحم جمل وأكلنا ! ! فنهض مجيد إلى مرعى عمه الملك ، واختار من بين الجمال أحسنها ، وهو الجمل الأصهب الذى لا نظير له إلا جمل فى بلاد اليمن اسمه غيهب . وكان عند عمه بجميع ما يملك ، فنحره وسلخه وحمل لحمه إلى الغدير ، وأحضر حطباً من أغصان الشجر وأضرم النار ، وجعل يشوى اللحم ، ويأكل ، والبنات يأكلن فانتشر الدخان ورائحة اللحم ، وأحس العبيد ذلك واستيقظوا من نومهم ، وطافوا بالمرعى فوجدوا الأصهب مذبوحاً ، فذهبوا إلى الغدير باكين صارخين ؛ وقالوا لمجيد : لمَ لم تعلمنا ما تريد ؟ لمَ لم تطلب منا جملاً لنختار لك غير الأصهب ؟ ! إنك لو ذبحت الجمال والنوق جميعها وتركت الأصهب ما حزن عمك ولا تألم ؛ فخجل مجيد من كلام الغلمان أمام البنات وجرد سيفه وهم أن يضرب رقابهم ، ففروا خائفين ، وجرى من خلفهم ليدركهم فكانوا أسرع منه ومضوا إلى الملك قيس وأخبروه ، فقال : هاتوا مجيداً رغباً أو رهباً ، ولما رجع من ورائهم لم يجد بنتاً واحدة عند الغدير ، لأنهن خشين الفضيحة ، فانفرط عقد مجلسهن ، ورجعن مسرعات إلى منازلهن ، فجلس مجيد عند الغدير فى حسرة وألم لأنه لم يجد البنات جالسات ، ولانفضاض مجالس لهوه ومرحه ، وجاءه العبيد إذ ذاك وقالوا : إن عمك يدعوك إليه ، فسار معهم إليه ، فأغلظ عليه فى العتاب ، ثم قال : لولا أنى أخشى لوم العرب

مجيد يشوى لحم الجمل الأصهب والفتيات من حوله

لذبحتك كما ذبحت الجمل الأصهب ، فبكى مجيد وقال : لقد ذبحت الأصهب على غير علم بمكانته عندك ، فإما قتلتنى فيه ، وإما عفوت عن ذنب غير مدبر ولا مقصود ، فاغتاظ الملك وقال للعبيد : خذوه من قدامى وانزعوا عنه ثيابه وأحرقوها ، وألبسوه حلة من حللكم ، واجعلوه راعياً مثلكم .

وكان زهير ابن عمه قيس حاضراً ، فعز عليه ما سمع وقال لأبيه : إذا كنت تجعل ابن أخيك راعياً ، فلمَ جئت به من بلاد اليمن ؟ ! ولمَ لم تتركه فيها يرعى هناك الجمال بعيداً عن الأهل والعشيرة ؟ ! إن هذا الأمر لا نطيعك فيه وإن قطعت فيه رءوسنا ، وما كان لزهير بن قيس أن يرضى لابن عمه مالك رعى الجمال مع العبيد ، وساعد زهيراً فى ذلك من كان حاضراً وعمه نوفل ، وهموا أن يسرحوه من قدام الملك فى ذلك الوقت الذى تضطرم فى نفسه نار الغضب ، فقال قيس : لن أعفو عنه حتى يقسم لى أنه بعد هذا لن يجالس البنات ، لا فى الليل ولا فى النهار ، فقد ضج رجال العرب من هذه الحال . فأراده الحاضرون على أن يتوب ويرجع عن مجالسة البنات فأقسم أنه تاب ، وكان عمه نوفل يحبه محبة عظيمة ، ثم أخذوه من قدام عمه الملك ، فمضى إلى أمه باكياً حسيراً ، فأغلظت عليه فى ملامها وبينت له خطأه فى حق عمه ، ونفرته من مجالسة البنات ، وأرسلت إليه عبلة حين بلغها أمره ، فكانت مثل أمه فى لومها وكرهت له الاتصال بالبنات ومجالستهن ، فتاب مجيد ، ولكنه ما نسى أسماء ولا خمدت فى

صدره جذوة حبها ، وقد جرى هذا وعنترة وصحبه فى بنى غطفان ، فى وليمة أقامها الهطال ابن أخته .

كانت أسماء ترغب فى الزواج من مجيد رغبة فوق رغبته ، فأرسلت إليه أمة من إمائها اصطفتها اسرها وقالت : اذهبى إلى مجيد وبلغيه أننى لا أرضى بزوج غيره وإن حرقونى بالنار ؛ فلما بلغته الجارية قول مولاتها طابت نفسه واطمأن فؤاده .

وحضر عنترة فى ذلك اليوم فبلغه ما جرى من الملك لابن أخيه ، ودخل على عبلة فقصت عليه الأمر . فغضب وعز عليه أن يعامل مجيد بن مالك هذه المعاملة ، كما غضب لأنه ذبح الأصهب ، ولكنه سكت حتى لاتكون فتنة . وشكا مجيد إلى عمه نوفل ما يقاسيه من حب أسماء ، فرقَّ لشكواه ، وكان يخرج به ويقفان على مقربة من مضاربها لتبادله النظرات والابتسامات وأحاديث العيون والإشارة . ولما علم أبوها بمجىء مجيد إلى مضاربه لينظر إلى ابنته شكا إلى وجوه العشيرة وبين لهم ما يفعله مجيد بهم ، فغضب قيس وقال للشيخ : ولمَ صبرت على ذلك ؟ ألم تكن عندك نخوة عربية ، ولمَ لم تذبحه كما ذبح الجمل الأصهب ؟ ! ثم التفت إلى أصحابه وقال : أشهدكم على نفسى أنى وهبت لهذا الشيخ دم ابن أخى ، وإن قتله فلن يطالبه أحد بدمه ، وإن طالبه أحد بثأره كنت خصيمه ، فشكر له الشيخ وقال : إنى لا أرضى أن أجرد فى وجهه سيفاً ، ولكنه إن جاء

المضارب أمسكته وأتيت به إليك ، فقال الملك قيس : لقد أشهدت من حضر على نفسى أنى وهبت لك دمه ، والأمر إليك بعد ذلك . فرجع الشيخ ومن معه من رجاله وقال لهم : إن الملك لا لوم عليه بعد الذى سمعناه منه ، فقال أحد عقلائهم : لا يغرنك ما سمعت من قوله ، وأعلم بأنك إن قتلته فلن يترك قيس منا أحداً ، فلا تعول على قتله ، ولا تكن سبباً فى سفك دمائنا ، ويكفيك منا أننا هاجرنا معك لأنك لم ترد أن تزوج ابنتك من رجل قلت فيه إنه عايل النسب — وكان ميسرة قد أراد ابنته له زوجاً ، ولكنه قال : إنه أسود اللون ولا علم لنا بنسبه — ولو عرفنا نسبه وصح فى رأينا لزوجناه ابنتك على الرغم منك ، ولكننا أعذرناك وأطعناك وهجرنا أوطاننا حرصاً منا على رضائك ، فلا يجمح بك غضبك ، ولا تلق بنا فى التهلكة ، ورأينا أن تزوجها من مجيد بن مالك الذى يحبها ، فهو رجل شجاع صريح النسب كريم المنبت ، من بيت الملك ومن أشرف العرب . واتركنا نقيم فى جوارهم آمنين ، فإن أبيت تركناك وحدك ورجعنا إلى ديارنا سالمين ، فقال الشيخ : وكيف أزوج ابنتى ممن لم يأتنى خاطباً ، وهل يجوز فى رأيكم أن أخطبه لابنتى ؟ ! فمن أحب منكم أن يرجع إلى دياره فليرجع ، ومن أحب أن يقيم فليقم ، فقالوا : ارحل بنا إلى مكان غير هذا ولنرتقب هنا فى منزلنا الجديد ما سيكون ، فإما أعرض مجيد عنا وامتنع ، وإما صالح عمه وجاءك خاطباً ، فإن لم يفعل هذا ولا ذاك ، وجاءنا خفية

أمسكناه وذهبنا به إلى عمه .

رحل الشيخ بعد ثلاثة أيام إلى أرض الردم وكان بينها وبين بنى عبس مسيرة يوم أو دون يوم ، وضاق صدر مجيد بهذا الرحيل ، وشكا إلى عمه نوفل ما يقاسى من ألم الفراق ، وحاول عمه أن ينسيه أسماء فما استطاع ، وغلبت على عمه شفقته فخرج به إلى الغدير الذى يشرف على منازل الشيخ فوجدا عليه الجارية التى اختارتها أسماء لأسرارها ، والتى كانت قد أرسلتها إلى مجيد تبث إليه ما فى نفسها من محبة ، فدنا مجيد منها ، فعرفته وسلمت عليه ، وسألها عن أسماء فقالت : تقاسى آلام الفراق ، فقال : ألا تحبين ، أن تخبريها أنى على هذا الغدير ؟ ! فقالت : استتر فى ظل هذه الشجرة حتى آتيك بها .

ملأت الجارية وعاءها من الغدير ورجعت ، وهى خائفة أن يكون قد رآها أحد ، فدخلت على أسماء وأخبرتها بأن مجيداً ينتظرها تحت ظل شجرة عند الغدير ، فالتحفت بكسوة سوداء وأسرعت إليه فى صحبة جاريتها سعدى ، فالتقيا وتشاكيا ما يجدانه من ألم الفراق وبعد المزار .

ولقى نوفلاً ومجيداً فى الطريق حين عودتهما عبد من عبيد الملك قيس ، وكان يحب مواليه ، فقال لهما : إن الملك بلغه أنكما خرجتما إلى مضارب الشيخ

أبى أسماء، فأرسلنى إليه لأبلغه رسالة الملك وهو يخبره فيها أنكما ذهبتما إليه، ويأمره بقتلكما ، فارجعا من طريق غير مسلوك ، وادخلا متنكرين ، ولا تخبرا أحداً أنى رأيتكما أو رأيتمانى ، وإنى ذاهب إلى الشيخ لأبلغه رسالة الملك . فشكرا له جميل صنعه، ومضيا إلى الديار ، وقال نوفل لابن أخيه: إن أردت أن تصل إلى ما أردت من زواجك بأسماء فاذهب إلى عنترة وبث إليه شكواك ، وانتظر بعد ذلك تحقيق المراد .

ودخل مجيد على أمه فسألته: أين كنت ؟! فقال : عند عمى نوفل ، ولكن أمره لم يخف عليها، فقالت : أخبرنى يا بنى عما فى نفسك وما غير من حالك ، وأضعف جسمك ، وقال زادك . فحكى لها كل شىء ، فقالت : لن يريحك إلا عنترة ، وفى الصباح أذهبُ إليه وأحدثه بكل ما يهمك ويضنيك .

وفى الصباح ذهبت إلى عنترة فوجدت عنده مقرى الوحوش ومازنا ، فسلمت عليهم وأخذت مجلسها بينهم وحدثتهم بحديث ابنها غير تاركة منه شيئاً، فقال عنترة: لو كان الملك راضياً عنه لأراحه وزوجه ممن يريد، ولكنه غضب عليه لذبحه الجمل الأصهب فهو لذلك أهمل شأنه بل أهدر دمه ، ولكنى سأزوجه من أسماء وإن قتلت فى سبيل ذلك ربيعة ومضر . فقال مقرى الوحوش : إذا كان الأمر كما ذكرت فإنى أشير عليك بأن نذهب إلى الملك قيس ونأخذ معنا مجيداً ، وهناك يعتذر إلى عمه ويبدى له أسفه وندمه

وأنه ابنه وطوع يمينه ، ثم نرجو منه أن يساعده ويزوجه أسماء فإن رضى وأجاب فذلك ما نريد ، وإن عصى فأنت فى حل مما تفعل ، وذلك أن الشيخ والد أسماء كان فى جواره ونزل فى حماه، وما هاجر من منازله إلا هرباً من عدوان ابن أخيه ، فإن نحن أهملنا الملك قيساً وذهبنا إلى الشيخ نكون قد خرقنا الجوار وأوقعنا الفتنة بين العشيرة ، ولكنا إن أشركناه معنا كان أكرم له وأجمع لشملنا . فقال عنترة : هذا جميل ، فهيا بنا إليه . وذهبوا إلى الملك واعتذر مجيد اعتذاراً مؤثراً كريماً، ثم قال عنترة: لقد بلغنى أنك أهدرت دمه فى جماعة لا يبلغون فى القيمة قلامة ظفره ، وإنى أقسم برب الكعبة لأقتلن بسيفى هذا من يصيبه بمكروه ، ويبدو لى أنك غضبت عليه لذبحه الجمل الأصهب، فقال الملك : ما أهدرت دمه من أجل الأصهب، ولكنه هتك حرمة جارى وآذاه فى ابنته ، حتى رحل من جوارى غاضباً ، وقد جاءنى أبوها شاكياً باكياً ، فأهدرت دمه لأستريح منه ، فقال عنترة: إذا كان والد أسماء قد جاءك شاكياً فلِمَ لم تزوجه منها لكى تستريح منهما، وتريح ابن أخيك من هذا العذاب ؟ فقال : ذلك لم يخطر لى على بال ، وما كان ينبغى لى أن يطلب الرجل الستر والحجاب لابنته بشكواه ثم أجيبه بخطبتها لمن آذاه فيها ! فقال عنترة: إذا كنت لا تخطبها له فأنا أخطبها من أبيها ، ولا أهمل أمر هذا اليتيم وإن قطعت الرقاب فى سبيله . فسكت قيس قليلاً ثم قال : يحسن أن تتولى هذا الأمر عنى ، ولن تجد لك

معارضاً فيه ؛ فشكر له جميل عطفه وانصرف .

وقال عنترة لمقرى الوحوش : ماذا ترى فى هذا الأمر ؟ فقال : أن أذهب أنا ومازن ونوفل إلى الشيخ ونخطب ابنته إلى مجيد ، ونقول له : إن الملك قيساً أفزعه رحيلكم وأغضبه ، وقد تبين أمر ابن أخيه فوجده طاهراً عفيفاً يعف عن الدنية ولا يرضى لجاره الشر والأذى ، وقد رضى عنه وأدناه منه بعدأن كان قد أهدر دمه . وقد أنفذنا إليك لنخطب ابنتك إلى مجيد ، ليوثق بالنسب الرابطة بينك وبينه ، ولتقيم فى الديار كأنك من الأهل والعشيرة ، وليكون لك هيبة فى نفوس أعدائك فلا تكون مطمعاً لهم فى أى وقت من الأوقات . قال مقرى الوحش : وتبقى أنت يا عنترة ومجيد حتى لا يكون وجودكما سبباً فى غضب الشيخ وعصيانه ، فقال عنترة : لا بأس فى ذلك ، وأخبر عنترة نوفلاً بما قال مقرى الوحوش فقال : ما أجمله رأياً ! وفى الصباح أعطاهم عنترة خمسين ناقة عصفورية ، وعشر أفراس مطهمة وشيعهم فى جماعة من فرسانه ، ووصى نوفلاً ألا يرجع إلا بنيل ما يطلبه مجيد ، فقال نوفل : سنبذل ما فى طاقتنا وبالله التوفيق .

وساروا مستبشرين حتى كانوا فى المكان الذى نزل فيه الشيخ ومن معه فما وجدوا لهم أثراً ، فحزنوا وقالوا : يحسن أن نقيم هنا إلى وقت السحر ثم نعود إلى عنترة ونطلعه على خبر هؤلاء الذين لا بد أنهم رجعوا إلى أوطانهم .

فقال مقرى الوحوش : لو كان عنترة معنا لاقتفى أثرهم وتبعهم إلى بلاد اليمن ، فقال نوفل : وكيف نتبع بنى بشر ونحن ثلاثة ، فانتظر حتى السحر ، ثم نرجع ونفضى إلى عنترة بما وجدنا فهو أكثر خبرة منا وأوسع معرفة .

وفى السحر رجعوا وهم يتحدثون فى أمر مجيد حتى دخلوا على عنترة ، فنهض لاستقبالهم وقال : ماذا فعلتم ؟ فأخبروه بما رأوا ، فقال : إن هذا الأمر سيزيد مجيداً ألماً وتوجعاً ، ولا ينبغى أن نتركه فى ألمه هذا ونحن قادرون على إزالته ، فقال مقرى الوحوش : يغلب على الظن أن الشيخ أباها رحل بها إلى البيت الحرام ، لأنى قد سمعت أنه هرب بابنته من دياره من أجل غلام حَدَث شجاع اسمه ميسرة ولكنه عليل النسب ، وأصر على أن يتزوج من أسماء ، ولما هرب بها إلى ديارنا ظهر له مجيد بما أفزعه وأقض منزله فرحل إلى ذلك المكان الذى لم يبعد عنا يوماً أو دون يوم ، ولما وجد مجيداً غير تارك له رحل منه إلى البيت الحرام ليجد فيه الراحة والحماية من مجيد وميسرة وغيرهما ؛ فقال عنترة : إذا ركب ببنته ظهر السحاب فإنى مدركه ، فخذوا أهبتكم لنسير فى الصباح إليه . وجاء الليل وهجع الحى ، ولكن مقرى الوحوش جلس إلى زوجته مسيكة وابنه سبيع اليمن يتحدثون حتى انتصف الليل ، ولما نهض إلى فراشه لينام جاءه شيبوب ودعاه إلى أن يذهب الآن إلى أخيه عنترة ، فظن أنه لأمر هام يستوجب حضوره إليه

فقام ومضى مع شيبوب إلى عنترة ، فوجده جالساً والنار تضطرم أمامه فقال له : لقد شغلت بالى بدعوتك لى فى هذا الوقت من الليل ، وما ذقت للنوم طعماً هذه الليلة ، فقال : ولكنى نمت ثم استيقظت الآن ، وقد دعوتك لأقص عليك رؤيا أفزعتنى وأطارت النوم من عينى ، فدعوتك لأستأنس بك ؛ فقال : وما رأيت فى منامك يا أبا الفوارس؟! فقال : نمت مشغولاً بمجيد بن مالك فرأيت القمر كأنه طلع من غير مكانه ، فأمسكته وأردت أن أرده إلى مطلعه ، فأحرقتنى أنواره ، فنقلته من يدى اليمنى ، فرأيته فيها سيفاً لامعاً ، فضربت به سواد الليل فأشرق وجه الصباح ، فاستيقظت مذعوراً وودت لو أرحتنى وأولت لى هذه الرؤيا إن كنت على معرفة بالتأويل ، فقال مقرى الوحوش : أظن أن هذه الرؤيا لا يعرف تأويلها إلا علماء البيت الحرام ، وأعتقد أن لك منها كل خير ، لأنى أعرف أن البدر والسيف فى الرؤيا رمز إلى ولد ذكر ، فقال عنترة : ما بقى لى صبر على البقاء وأحب أن أبدأ الرحيل إلى البيت الحرام قبل طلوع الفجر ؛ فامض إلى منزلك وجهز مطيتك لنخرج فى ظلام الليل ؛ وبعث أخاه شيبوباً إلى عروة بن الورد ورجاله ، ودعا أخاه مازناً وأمره أن يتهيأ للرحيل .

وساروا فى ظلام الليل ، وقص على عروة رؤياه فعجب منها دون أن يدرى لها تفسيراً ، ووجدوا فى طريقهم آثار معركة وقتال ، وجثثاً

مبعثرة ، وتبينوها فإذا هى من بنى بشر بن جهينة ، ورجال الشيخ أبى أسماء فحزنوا وحاروا فى أمرهم ، وخافوا أن يكون الشيخ وابنته من بين القتلى ، فقال عنترة : يا شيبوب ، سر بنا فى هذا السبيل الذى كثرت فيه آثار الخيل ، فسار وساروا من خلفه وكانوا سبعين فارساً .

١١

كان ميسرة دخيلاً على بنى بشر ، مات أبوه وهو طفل صغير ، فنشأ فى بنى بشر وكانت أمه تخدم فى بيت من بيوتهم وتقوم على تربيته ، وشغف هو بالفروسية فى حداثته ، وما زال يمهر فيها ويروض نفسه على أهوالها حتى بلغ فيها مدى لا يسامى وعرف بين بنى بشر بالشجاعة التى لم يبلغ إليها أبطالهم ، وكثيراً ما رد عنهم بسيفه أعداءهم ، وكان أن خطب إلى نفسه أسماء بنت الشيخ خداش وألح عليه كثيراً ، ومناه بالأموال وأن سيكون شيخاً ذا مكانة وهيبة بشجاعته وسيفه ، فأبى الشيخ معتذراً بأنه مجهول النسب عليله ، وقال لرسوله : لقد نفخ الشيطان فى أنف ميسرة فطمع فى المحال ، فارجع إليه وبلغه أنه لو ساق إلىّ ما فى الأرض جميعاً ما زوجته ابنتى أسماء .

جعل ميسرة يشكو إلى أصدقائه ، وذاع أمره بين العشيرة ، وملأ المجالس

الحديث فى أسماء وميسرة ، وكان الشيخ يغضب إن سمع شيئاً فى هذا الأمر ، وشكا إلى سابق مقدم القبيلة فقال له : وما الذى يمنعك من أن تزوجه ابنتك ، وهو فارس شجاع تعتز بسيفه ، وقد لا تجد لابنتك فارساً مثله؟! فقال خداش : وكيف أزوج غلاماً أسود ، يختلف فى لونه عن أبيه وأمه ، وآثار العبد بادية فى جسمه ؟! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقد يكون ابن حر كريم ، وأنا أعرف من شمائله وفضائله شيئاً كثيراً ، أما اختلاف الناس فى ألوانهم فإنه كاختلافهم فى ألسنتهم وذلك من صنع الله الخالق القادر ، وأنا أشهد له بكرم حسبه ونسبه وسأناديه ابن العم لترضى . فأدرك خداش أن الأمير له رغبة فى زواج ميسرة ، وأن القوم سيكونون على مذهبه ، وأن ميسرة قوى عليه بسيفه ؛ فقال فى نفسه : لا ينجيك يا خداش إلا أن تداريهم وتهادنهم ، وإلا أخذت ابنتك منك غصباً ، وقال للأمير : إذا كنت ستناديه بابن عمك ، فإنى رضيت به ، وخذ منه الصداق ثلاثمائة ناقة من نوق صاحب الأرض السوداء ، ولا إخالها عند أحد إلا عند عنترة بن شداد ، فقال الأمير سابق : أبشر يا خداش بكل هناءة وسرور ، فقد ظفرت بفارس سيكون لك معصماً وقوة . وذاع هذا بين القوم ، وبلغ ميسرة ففرح ومضى إلى الأمير سابق وسمع منه ما دار بينه وبين خداش ، فشكر للأمير صنيعه الجميل ، وقال : سأسوق إليه ما شاء من الأموال .

وبعد ثلاثة أيام ركب ميسرة فى مائة فارس من رجاله ، وعرض الأمير عليه أن يمده بفرسان من عنده فأبى ميسرة وشكره وقال : لولا أن الأبطال ترمينى بالغرور والإعجاب بالنفس لذهبت وحدى إلى جبل الدخان ، وأفنيت من فيه من الرجال ، ثم ودعه ومضى إلى سبيله . وكان خداش قد أراد بما طلب أن يخرجه من الديار حتى لا يعوق رحيله منها ، ثم قال لأهله وعشيرته : إنى راحل من هذه الديار ولا يتبعنى منكم إلا من رغب فيه .

وبعد أيام من رحيل ميسرة شكا خداش إلى الأمير قلة المرعى والماء فقال له : اختر لنفسك ما تشاء من المراعى وانزل فيه ، فرحل فى خمسين فارساً من عشيرته كانوا يبغضون ميسرة ، وينقمون من الأمير إلحاقه بنسبه ، ونداءه إياه بابن العم ، ولا يحبون أن يكون ميسرة زوجاً لأسماء ، وساروا حتى نزلوا عند الملك قيس وكان ما كان من أمر مجيد معهم ، واضطر خداش إلى أن يرحل عن أرض قيس إلى البيت الحرام ، فسار وقومه حتى كانوا عند مكان اسمه علم الناظر ، وهو كثير المراعى والماء فنزلوا فيه .

كان ميسرة قد ذهب إلى جبل الدخان ، وفتك بأهله وفرسانه وقتل أميره وشاحاً وعاد ومعه ألف ناقة ، فلم يجد خداشاً ، فذهب إلى الأمير سابق ومنحه بعض أمواله التى غنمها ، وسأله عن خداش

الذى أرسله فى طلب المهر لابنته فقال : يبدو لى أن الرجل خبيث ماكر ، وكان قد أضمر فى نفسه الرحيل ، فاحتال لخروجك من الديار ، وانتهز فرصة غيبتك ورحل ، فقال ميسرة : ألا تعرف إلى أين مضى ؟ فقال : لا أدرى : ولكنى سمعت أنه طالب أرض الحجاز ، فلعنة الله عليه وعلى من معه ، وأرى أن تخطب من شئت من البنات ، فإن القوم يحبونك ويفتخرون بك . فشكر له ميسرة جميل لقائه وانصرف إلى منزله ، وفى صدره نار غيظ حامية من خداش وكيده ، وهناك اختار عشرة من فرسانه وخمسة عبيد من غلمانه الأقوياء وخرج فى طلب خداش ، وسار بهم فى البيداء حتى التقى بخداش عند علم الناظر الذى نزل فيه للراحة ، فهجم عليهم بفرسانه ، وشواهم بنار غيظه ، حتى اعتصم بعضهم بالجبل وكان قد قتل كثيراً منهم وجرح ، وأراد ميسرة أن يهجم على من فى الجبل ليأخذ أسماء من بينهم مسبية ، فقال له أصحابه : يحسن أن نجمع بينك وبين خداش ونصلح بينكما ، ثم نعود به إلى ديارنا وهناك تتزوج منها عن رغبة ، وكان خداش قد أصيب فى عينه وانطرح على الأرض فى جملة القتلى والجرحى ، فجعلوا يبحثون عنه بينهم حتى وجدوه ، فقالوا له : لقد كنت السبب فيما نزل بك من هذه المحنة ، وما كان لك عذر فى هربك بابنتك بعد أن رضيت بزواجها من ميسرة ، وخروجه فى طلب المهر الذى اقترحته ، فلم يجد خداش مفراً

من أن يعتذر لهم حتى لا يقتلوه ، فقال لهم : لقد أخطأت وندمت ، وأرى أن نترك هذا الأمر حتى تبرأ عينى من جرحها ، وبعد ذلك نقوم بحفلات الزواج ونزف ابنتى إلى ميسرة فهو لها خير زوج . وجىء بالهاربين وفيهم أسماء إلى أبيها ، وساروا راجعين إلى ديارهم ، حتى قربوا منها ، وبقى بينهم وبينها مسيرة يومين ، وكان ميسرة قد عرف من أصحاب خداش ما جرى له فى أرض بنى عبس من أمر مجيد وتعصب عنترة بن شداد له ، وإصراره على أن يزوجه ممن أحب وأراد ، فكان لذلك مشغوفاً بأن يلتقى بعنترة ويقاتله .

ظهر غبار عنترة وجماعته من خلفهم ، فوقف ميسرة ومن معه للقائهم ، وليستبين أمرهم ، فما لبثوا أن سمعوا صياحاً : إلى أين تفرون من الموت أيها الجبناء وهو يجرى من ورائكم بسيوف بنى عبس؟! فقال خداش : ليتنا ما هربنا ، فهذا عنترة قد أتى بفرسانه ، ونحن لا محالة واقعون فى أيديهم ، ولقد كان مجيد خيراً لابنتى من هذا العبد الأسود ، وأرى أن نعتزلهم فوق هذه الرابية ، ومن غلب منهم أخذنا سالمين . فوافقوه على رأيه واعتزلوهم ، وكان يحبون أن ينتصر عنترة ليرجعوا إلى بنى عبس أهل الحسب والنسب والشرف الرفيع . ولما نشبت المعركة بين بنى عبس وأصحاب ميسرة أمر خداش عبيده أن يسوقوا الظعن إلى بنى عبس ففعلوا ، وكانت أسماء فرحة بذلك ، ودارت معركة حامية أسر فيها بعض أصحاب عنترة وفيهم عروة

ومازن ، وكان قد وقف القتال لانقضاء النهار ، فغضب عنترة وحزن لأسر أصحابه وعروة ومازن ، وأصر أن يخوض المعركة فى صباح الغد ليدمر ميسرة وصحبه تدميراً ، ولكن مقرى الوحوش أقسم عليه أن يترك هذا الفارس له وألح فى رجائه فقال عنترة : ما رأيت مثل هذا الفارس شجاعة وقوة ، ولقد وقع فى يدى غير مرة ، وكان هلاكه أيسر من كلمة تخرج من فمى ، ولكنى رأيتنى أكف عنه وأبقى عليه بدافع من قلبى ، دون أن أعرف له سببا ، وما كانت يدى تطاوعنى أن تنصب عليه بمكروه ولقد رغبت أن يكون هذا الفارس ابنى ، أو أرزق بولد مثله ، يكون لى قوة ونصيراً . ثم سأل خداشاً عنه فقال : إنه غريب عنا ، وقد ربته أمه فى ديارنا وذكر لهم قصة أمه ، فقال عنترة : هذا عجيب . إن قصة هذا الغلام شبيهة بقصتى ، ولو أنه ترك أسماء وكف عن طلبها لنفسه ، لخرجت إليه وحببت إليه المقام معنا وأن يكون من فرساننا . وفى الصباح نشبت المعركة وخاض مقرى الوحوش غمارها ولقى من ميسرة البلاء والويل ولم يستطع أن يقهره أو يأسره ، ودامت المعركة حتى انتهى النهار ، وكان عنترة قد انقض على مكان الأسرى فخلصهم وخلص عروة ومازناً .

بات ميسرة يغلى صدره غيظاً إذ وجد خداشاً ومن معه قد انحازوا إلى بنى عبس ، وبلغه خلاص الأسرى من أيديهم ، وأشار عليه صحبه بترك القتال والرجوع إلى الديار ، فقال لهم : لن أترك هذا الميدان حتى أنال ما

أردت ، أو تكون أشلائى موطئاً لسنابك الخيل ، فامضوا أنتم إلى الديار ، ولا تنعونى إلى أمى ، لأنى سأقهر هؤلاء الأعداء ، ثم أرجع إليكم فائزاً . فقالوا : ولن نتركك حتى نلتقى معاً بالنصر أو بالموت .

وفى الصباح عزم عنترة أن يلقى هذا الغلام ، فأقسم عليه مقرى الوحوش أن يتركه له هذا اليوم أيضاً ، وكان مضطرباً وجلاً ، فقال عنترة : يبدو لى منك ما ينم عن اضطراب ومخافة ، فهل ترى شيئاً لاتراه معك ؟ فقال : قد تكون بقولك هذا لمست بعض الحقيقة ، فإنى رأيت الليلة فى المنام كأنى فى مهمه قفر ، وحولى من الوحوش ما يذهب العقل ، وقد مدت أعناقها تريد أن تفترسنى ، وما نفعنى سيفى وشجاعتى حين حاولت طردها عنى ، فلم أجد سبيلاً لنجاتى إلا أنى طلبت منها الأمان فى ذلة وانكسار ، فصاحت قائلة : ما أنت بمنتصر ، وغداً ستلقى جزاءك . قال مقرى الوحوش : وقد أصررت يا أبا الفوارس على أن أبارز هذا الغلام فإن قهرته كان ما رأيته أضغاث أحلام ، وإن قهرنى كان قد صدق ، وإنى أوصيكم بسبيكة زوجتى وابنها سبيع اليمن ، فقال عنترة : لقد شغلتنا برؤياك ، وألجمت أفواهنا بقسمك فأنت وما أردت .

انفلت مقرى الوحوش إلى الميدان طالباً ميسرة ، وهو لا يدرى كيف يكون مصيره ، وبرز إليه ميسرة ، وأظهرا من ألوان القتال والمبارزة ما حير الألباب وأدهش العقول ، ثم ضربه ميسرة بحربته ، فرمته عن جواده ،

وسقط على الأرض مغشياً عليه ، وهرب جواده من هول ما رأى ، ففزع عنترة وصاح : صدقت الرؤيا ؛ ثم أسرع بجواده إليه ، وتبعه عروة ومازن ، فربطوا جرحه ، وحملوه وهو فى ذهول وسكرة ، كذهول الاحتضار وسكرته ، ورأى خداش ذلك ففزع وقال : لم يبق لهذا الفارس إلا عنترة ، فإن ظفر به كفانا شره ونعمنا بالمقام فى ديار بنى عبس .

وفى الصباح كان عنترة قد جلس إلى مقرى الوحوش ، فسمع ميسرة فى الميدان يقول : يا فرسان الحجاز ، ذلك يوم الفصل ، وإن كنتم قد يئستم فأعطونى خداشاً وابنته ، وارجعوا سالمين . فهم مازن أن يخرج إليه فمنعه عنترة ، ونهض إلى جواده فركبه ، وما لبث أن وجد نفسه فى الميدان أمام ميسرة ، وكان لهما مواقف تقشعر منها الأبدان ، وعجب شيبوب من أخيه إذ أطال المبارزة وأمهل خصمه ، فلما وقف البراز بينهما لتستريح خيلهما أقبل شيبوب إلى أخيه وقال : هل أضعفك الكبر وأثقل يديك ؟ كم وقع الفارس بين يديك ، وكم تمكنت من قتله ، وأنت لا ترضى أن تهلكه أو تأسره ، فماذا جرى ؟ ! فقال عنترة : والله يا أخى إنى لفى عجب أكثر من عجبك ، وكأننى مسحور أمام هذا الفارس ، ولا أدرى لمَ لا تطاوعنى يدى ، ولم يحبسنى قلبى ، ولماذا أجد فى نفسى من العطف عليه ما قيدنى وصرفنى عن قتله أو أسره ، فقال شيبوب : إذا كان هذا الغلام قد فعل لك شيئاً من السحر أبطل به شجاعتك فأخبرنى

حتى أرميه بنبلة تنفذ من قلبه ، ونتهى منه ؛ فتبسم عنترة وقال : استرح يا شيبوب واطمئن فلن يكون إلا ما أحببت ، ثم انقض عليه وحمل حملة عنيفة أصيب فيها جواد ميسرة فانكب على الأرض ، وأسرع إليه شيبوب فكتفه وساقه أسيراً ؛ ولما رأى أصحاب ميسرة ما نزل به فروا إلى ديارهم هاربين ، ثم رجع عنترة بأصحابه ومعهم ميسرة ، وخداش وابنته ، من الطريق الذي جاءوا منه ، وكان حزن عنترة على مقرى الوحوش عظيما وقال : إذا دنا أجله وأيست من حياته ذبحت خصمه أمامه ، قبل أن يموت . ثم جدوا فى المسير إلى البيت الحرام ، ولما قربوا منه رأوا جيشاً يدل على أن قائده ملك كبير . فلما قرب منهم قال عنترة : هذا جيش النعمان بن المنذر ، فماذا جرى فى بلاده حتى غادرها إلى أرض الحجاز ؟ فقال عروة : لعله أتى لزيارة البيت الحرام ، للتبرك بأصنامه ، فقال عنترة : ذلك ما لم يفعله ، وما له فى الأصنام حاجة ، لأنه على دين كسرى ، يعبد النار من دون الآلهة .

كان النعمان قد رأى فى منامه كأنه على رأس جبل ، وأمامه فيل ضخم يرتدى ثوباً من الحرير ، وهو يرسل من فمه النار والشرر إلى النعمان ، وكان كلما هرب منه جرى الفيل نحوه وطلبه ، فصاح مستغيثاً ، وجاءه غلام أمرد على جواده شاهراً سيفه ، فضرب الفيل وجعله نصفين فاطمأن النعمان وذهب عنه فزعه ورعبه ، وقال للغلام : أريد أن أمنحك من المال ما يغنيك ، وأن أدنيك منى وأجعلك فى أعلى منزلة ، لأنك أنقذتنى من

الهلاك ، فمن تكون أيها الغلام ؟ فقال : أنا هانئ بن مسعود وستنتصر على أعدائك بسيفي هذا ؛ ثم اختفى ، واستيقظ الملك وهو يرتعد رعباً ، وجعل النعمان يرى فى منامه هذه الرؤيا سبع ليال متتاليات ، فجمع خواص دولته وقص عليهم رؤياه ، وأمرهم أن يأتوه بمن يعرف من العلماء تأويلها ، فما عرفوا أن يجيئوه بأحد وقال وزيره : لا يعبر لك هذه الرؤيا إلا سطيح الكاهن الذى يتنبأ بالحوادث ، ويخبر العرب بما يجرى منها قبل حدوثه ، ويفسر أحلامهم تفسيراً صحيحاً صادقاً ، فسر إليه بمكة ، فإنك واجد عنده ما طلبت . فجمع من القبائل جيشاً عظيماً ، وما زال سائراً به حتى دنا من البيت الحرام ولقيه عنترة وصحبه ، واجتمع بعضهم ببعض وعرف منه عنترة سبب قدومه ، وحكى له عنترة قصته وقصة مجيد وميسرة وخداش وابنته أسماء.

وقال النعمان لعنترة : اترك أصحابك ومن معهم ليرجعوا إلى الأوطان واصحبنا أنت إلى البيت الحرام حتى نجدد هناك عهداً ونرى ما يكون من تأويل الرؤيا ، فقال : سمعاً وطاعة ، واستخلف عروة على من معه وأمره بالمسير إلى بنى عبس فصدع بأمره .

وسار هو مع النعمان ومعه مازن وبعض فرسانه ، ونزلوا حول البيت الحرام ، ثم سار النعمان وعنترة فى جماعة من كبار الأصحاب إلى دار الشيخ عبد المطلب فاستقبلهم فى حفاوة وكرم وأجلس النعمان إلى جانبه ، وسأله عن سبب مجيئه فقال : جئت من أجل رؤيا فزعت منها ، وقد ذكر

الشيخ عبد المطلب وضيوفه يتحدثون إلى الكاهن سطيح

العلماء أنه لا يعرف تأويلها إلا سطيح الكاهن بمكة ، فكانت هذه الرؤيا فرصة سانحة لزيارتكم ؛ فقال الشيخ : ومن العجيب أن أرى أنا البارحة رؤيا وقد أرسلت فى طلب سطيح الكاهن وحمله إلينا وجلست فى جماعتى ورجالى ننتظر قدومه ، وعما قليل يأتى وتسمع منه تعبير رؤياك .

كان سطيح الكاهن من عجائب خلق الله فهو بلا يدين ولا رجلين ، ولا عينين ، إنه لحم لا عظم فيه ، إنه أنفاس تتردد فى لحم يطوى كما يطوى الثوب ، وهو يحمل على الأيدى إذا أراد أحد نقله من مكان إلى مكان .

وجىء بسطيح محمولاً ، فوضع بين أيدى الحاضرين ، وسلموا عليه فرد عليهم السلام فى صوت خافت ، ثم قال الشيخ عبد المطلب : رأيت كأن ابنى عبد الله واقف بين يدى ، وقد انبثق من بين عينيه نور تصاعد إلى السماء ، ثم اجتمع النور وزاد إشراقاً ، والعرب من حوله كأنهم نجوم السماء وهم يرمونه بالنار من كل ناحية ، وكنت إذ ذاك فى خوف شديد على عبد الله أن يصاب بأذى من العرب الذى يرمونه بالنار من كل جانب ، فوجدت أخاه أبا طالب قد جاءه بسيف يرمى بالنار والشرر ، فجعل يطرد به الأعداء عن أخيه ، ثم طار السيف من يده وارتفع إلى السماء وجعل يطول ويمتد حتى كان كالسحاب المطبق ، ثم نزل من السماء أجزاء كأنها الصواعق شملت الأرض شرقاً وغرباً ، وسمعت نداء يقول : يا أبا طالب ، لا تفعل وإلا

أهلكت من فى الأرض جميعاً . ثم هوى بالسيف طالباً أرض يثرب ؛ ثم انتبهت من نومى ، فما تأويل رؤياى ؟ غاب سطيح عن الحاضرين كأنه فى غشية ، وسكتوا سكتة كأنها سكتة الموت ، وبعد غيبة طويلة قال سطيح : آن الأوان ، لظهور سيد بنى عدنان ، الذى يجىء بالهدى والقرآن ، ويدعو الناس إلى الإيمان بالله وعبادته ، ويطهر البيت الحرام من الأوثان والأصنام ، وهو جميل الخلق ، مشرق الوجه ، لا طويل ولا قصير ، ولا سمين ولا هزيل ، عفيف فطن ، بليغ اللسان ، أمين صادق ، كريم السجايا ، عظيم الخلق ، يقول الحق ، وينطق بالصدق ، يخرج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وإنه ليدعى فى السماء وفى الأرض محمداً . ثم سكت سكتة طويلة والناس منه فى عجب عجاب ، وقد استقر ما قاله فى صدر عنترة وأنار جوانب نفسه ، ورجا من ربه أن يحييه حتى يمشى بسيفه بين يديه . ثم قال سطيح : وأنت يا نعمان جئتنا لتعرف تأويل ما رأيت فى الفيل ونيرانه والأمرد الذى دفعه عنك وشقه بسيفه نصفين ، ثم سألته عن نفسه فقال : أنا هانئ بن مسعود من بنى شيبان . فعجب النعمان إذ قص عليه رؤياه ولم يكن قد سمعها من قبل وقال : لقد حدثتنى أيها الحكيم عن رؤياى فحدثنى عن تأويلها ولك عظيم الشكر والإحسان ، فقال : إن الفيل والنيران فتنة تنجم فى ملكك ، وإنى أحذرك من إنسان أعجمى سيأتيك بجيش من قومه ، كما أحذرك من بطانة السوء

والخونة من قومك ، واستعن بهانئ بن مسعود فهو لك خير عون وأقوى سند .

عجب عنترة من هذا الحكيم فتقدم إليه ليقص عليه رؤياه ، فلما دنا منه قال سطيح : وأنت يا أبا الفوارس ، حياك رب السماء ، وكتب لك الزيادة فى السعادة ، ورزقك بولدين كأنهما أسدان ، ستذل بهما رقاب العرب والعجم ، وتبلغ بهما أعلى المنازل ؛ أما أحدهما وهو الأكبر فهو فى يدك أسير ، وأما الأصغر فستعرفه فى هذه الأرض بعد قليل . وجعل كل من الحاضرين يبدى ما عنده وهو يجيبه بما يراه حتى انفض المجلس وحمل سطيح مكرماً إلى حيث شاء .

وأقام النعمان فى ضيافة الشيخ عبد المطلب وإكرامه السابغ ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع أنفذ النعمان خمسين فارساً إلى بنى شيبان ليأتوه بهانئ بن مسعود ويدركوه به عند الحيرة ، وقد ضمن لهم الأجر الجزيل إن وجدوه وجاءوا به إليه .

وارتحل النعمان وجنوده ، وقال عنترة : إن سبيلنا واحد ، وسنسير معكم ولعلنا نجد ابنى فى تلك البقاع التى نسلكها ، فقال النعمان : لا أود أن تفارقنى ، ولولا أن قلبك مشغول بالأسير الذى فى يدك وحدثك عنه سطيح ما تركتك ، فشكر له عنترة جميل عطفه .

١٢

سار النعمان إلى العراق ولما قرب منها رأى رسولا يعرفه من قبل ، فقال له : ما عندك من الأخبار ؟ فقال : مات كسرى وتولى بعده ابنه خداوند ، وقد دانت لطاعته البلاد لعدله واستقامته ومحبته لرعيته ، وقد أرسلنى أخوك الأسود لتمضى إلى خداوند وتجدد عهد الولاء بينك وبينه قبل أن يجد الحساد منفذاً لهم إليه ، ويشعلوا نار الفتنة بينكما . فحزن النعمان وتذكر الرؤيا ، وخاف أن يأتيه البلاء من وراء هذا الحادث الجسيم .

لم يستقر النعمان فى الحيرة إلا بمقدار ما يستريح من السفر ، ثم رحل إلى المدائن ودخل على خداوند وأجلسه فى كرسيه المعد له أيام أبيه ، وهنأه النعمان بالملك وعزاه فى أبيه ومنحه الملك الخلع والهدايا ، وسأله عن سبب تأخره فقال : إنه كان فى البيت الحرام وحدثه عن سطيح الكاهن ولم يذكر له رؤياه ، وذكر له حديث سطيح عن النبى المرسل ، فقال خداوند : سيرى العجب من يعيش إلى أن يرى هذا الرسول ، فقال الموبذان : إن الكتب والحكماء يتحدثون عن هذا النبى وأنه سيولد بمكة ويجدد بيت إبراهيم ، ويهدى الناس إلى الإيمان وعبادة الإله رب زمزم والحطيم ، ويحطم الأوثان والأصنام .

كان خداوند هذا يحب العرب ويواليهم لأن أمه منهم ، وكان على عدله واستقامته يحب النساء وأغانيهن ، وقد ملك من الجوارى ما لم يملكه ملك غيره ، وذات ليلة وفى جلسة من جلسات الشرب والسمر قال له زيد ابن عدى : إنك أيها الملك قد ملكت كثيراً من الجوارى ، ورأيت كثيراً من النساء، ولكنك لن تجد فيهن أجمل من المتجردة زوجة النعمان، لقد بلغ من فرط جمالها أن ذكرها النابغة فى شعره ، وما استطاع النابغة على فصاحته أن يوفى جمالها حقه من الوصف ، فقال له : أسمعنا ما قاله فيها النابغة . فجعل يتلو من شعر النابغة فى وصف المتجردة ما حفظه، فأعجب الحاضرون بما سمعوه . أما الملك خداوند فإنه قال : يا بن عدى ، لقد كدرت علىّ صفو حياتى ، وجعلتنى أشغف بحب امرأة ما لى إليها من سبيل ، فهى زوجة ملك من ملوك العرب ، جرى دمهم بالنخوة والرجولة والحمية، ولن أستطيع بحال من الأحوال أن أقول له ابعث إلىّ زوجتك على أن تعود إليك ، فقال زيد بن عدى : إن فى دين المجوس أن الملك إن طلب زوجة أحد من رعيته ولم يرسلها إليه حرمت عليه، فقال: هذا عند العجم ، ولن يكون ذلك عند العرب . فقال إياس بن قبيصة، وكان من ندماء الملك والمقربين لديه: إن للنعمان بنتاً اسمها رباب ، وإن له أختاً ، وكلتاهما فى الحسن والجمال بحيث لا تصلح المتجردة لهما خادمة ، فإن أردت فاطلب واحدة منهما ، وحينئذ لا عتب عليك ولا لوم ، فإن أبى

أخذتها غصباً وإن جرّ الأمر إلى قتله . وكان خداوند عنده إذ ذاك خمسة آلاف جارية تركية ورومية وعجمية وعربية، وكلهن جميلات فاتنات ، فلما وصفت له المتجردة أصبحن كلهن أمامه كالعقارب والحيات ، وكان بين زيد بن عدى والنعمان عداوة وبغضاء، لأن النعمان قتل له ولداً أيام كسرى ، فهو من أجل ذلك يدبر له الفتن ليكيد له ويذله أو يقتله ، وقال خداوند : من يكون رسولى إلى النعمان؟ فقال زيد بن عدى : أنا رسول الملك إليه، فقال له : تأهب للرحيل غداً . وأمر له بمائتى فارس ، وأرسل معه من الهدايا والتحف ما يفوق حد الوصف .

رحل زيد بن عدى ومعه الفرسان والهدايا ، وسار حتى دخل على النعمان، فأكرمه وسأله عن الملك وحاله، وقال له : فيم جئت يا بن عدى فقال : جئت أزف إليك بشرى وصلتك بالملك صلة قرابة ونسب ! ! فقد أرسلنى خاطباً ابنتك رباب أو أختك الحريقة إليه، وتلك منة كبرى وفضل عظيم لم ينلهما ملك من الملوك. فهنيئاً لك يا نعمان بما أسبغ عليك من النعمة والجاه والشرف الرفيع . فغضب النعمان وقال : لو أن الملك أعطانى ملك أبيه فى شعرة من بنتى أو أختى يراها بعينه ما رضيت؛ فاذهب إليه وبلغه أنى ليس عندى بنات ولا أخوات . وعنده من بنات العجم ما يغنيه عن بنات العرب ، وبلغه أن الذى أشار عليه بذلك ما هو إلا عدو فى ثياب صديق .

لم يكن بن عدى يريد بهذه المشورة إلا إشعال نار الفتنة بين الملكين ، ولهذا فرح بتلك الإجابة ونقلها إلى الملك كما هى فى قالب وعبارة من وضع عدو ماكر غير أمين ، وقال زيد بن عدى لحاجب الملك وكان لا يعرف العربية : إن النعمان حقر الملك خداوند ، واستصغر شأنه ، وقال : إن ملكه وملك أبيه لا يبلغ عندى قلامة ظفر للرباب ابنتى أو الحريقة أختى ؛ فقال الحاجب : لو علمت أنه قال ذلك القول ونحن عنده لقطعت رأسه ، ولكن العذاب لن يفوته بعد أن يبلغ الملك ما قاله .

ولما وصل ابن عدى إلى الملك وأخبره بما قال النعمان غضب خداوند غضباً أليماً ، وكبر عنده أن يطلب حاجة من ملك فى قبضة يمينه ثم يلويها عنه محتقراً مستصغراً ، ثم قال : لأصلبن النعمان ، ولآخذن ابنته وأخته وزوجته . ثم أحضر إياساً وحكى له ما قال النعمان ، ثم أمره أن يأخذ سادات بنى طيئ ومن شاء من الفرسان ويذهب إلى النعمان ويأتيه به دون إبطاء .

جمع إياس رجال بنى طيئ وحلفاءهم فأصبح فى اثنى عشر ألفاً ، ثم قال لخداوند: هات معى مقدماً تختاره فى طائفة من جنوده ، فأمر مرزبان أن يسير مع إياس فى خمسة آلاف من الديلم ، ويكون فى طاعته ممتثلاً أمره ونهيه . ثم سار جميعهم إلى النعمان .

كان النعمان بعد رحيل ابن عدى قد جمع أهله وعشيرته وما استطاع

أخذه من الأموال وارتحل إلى أرض الحجاز .

ووصل إياس بن قبيصة الحيرة فلم يجد النعمان ولا أهله ولا عشيرته ، وقيل له إنه رحل إلى بلاد الحجاز ، فأرسل إياس إلى الملك خطاباً يقول فيه : إن النعمان ترك البلاد وهرب بأهله إلى أرض الحجاز ، وقد عولت على المسير وراءه ولن أرجع إليك إلا به . وأنفذ بكتابه هذا رسولاً إلى خداوند ، ثم جمع جنده ورحل خلف النعمان ، فأدركه ثالث يوم من مسيره ، ولما رآه النعمان جعل الحريم والعيال مع ألف فارس وتصدى فيمن بقى معه لإياس بن قبيصة وجيشه ، ووجد إياس من النعمان ضيقاً وشدة ، ولما خشى أن يهزم أخذ خمسة آلاف ومضى بهم إلى الحريم والعيال الذين جعلهم النعمان فى حراسة ألف فارس . وانقض إياس عليهم انقضاض الصواعق ، فعلا الصياح ودوى الصراخ . ووجد النعمان أن الحال قد تغيرت ، فانتعش إياس وجيشه ، وابتأس النعمان وجنده وكادوا يستسلمون ، لولا أن رأوا غباراً قادماً ، وما لبثوا أن رأوا ضرباً وطعناً فى الأعداء ، وصياحاً يدوى : يا لشيبان ! فعرف النعمان وجنده أن مدداً جاءهم وأخذ بأيديهم ، وأدرك النعمان أنه هانئ بن مسعود ، وأن رؤياه صادقة ، فقوى ساعدهم وثبتت أقدامهم وضاعفوا جهودهم وكفاحهم حتى كانت الغلبة لهم .

١٣

كان النعمان قد أرسل إلى هانئ خمسين فارساً ليجيئوا به إليه فى الحيرة، ولكنهم ذهبوا ولم يجدوه فانتشروا فى القبائل باحثين بعد أن يئسوا من الانتظار، وكان عنترة قد صاحبهم لأن سبيلهم واحدة، ولبث عنترة فى أرض ذى قار لبنى شيبان على بعض المناهل، وجعل يتحدث هو ومازن ومن معهما وقد ضاقت صدورهم لرجوع الفرسان إلى النعمان من غير هانئ، وإذا فارس يجرى وراء نعامة، ويلويها ذات اليمين وذات الشمال، ويصرخ فيها صرخات كأنها الرعد . فقال عنترة : إن كان هذا الفارس فى حروبه كما هو فى صيده فقد فاق الأبطال ؛ وما زال الفارس يتبعها حتى رماها على الأرض بسنان رمحه ، فتركها ومضى ليصيد غيرها ، فركب مازن جواده وقال لأخيه : إنى ذاهب لإحضارها لنتخذها غداءنا . فقال له : افعل ما شئت . وما كاد مازن يصل إليها حتى قدم إليها سبع فخطفها ودخل الغابة ، وجاء الفارس فوجد مازناً ولم يجد النعامة ، فقال : هل أخذت نعامتى أيها الفتى ؟ فقال : أخذها سبع وقد دخل الغابة بها ، فنزل عن جواده وترك سلاحه عنده ، ومشى راجلاً ، فدخل الغابة ،

فعجب مازن وقال فى نفسه : لن يستطيع مردة الجن أن يدخلوا إلى السباع فى الغابة من غير سلاح . وما لبث أن سمع صوتاً وزئيراً فقال : هلك الفارس؛ وعزم أن يأخذ جواده وسلاحه ويعود إلى أخيه، وإذا الفارس يخرج من الغابة ممسكاً ناصية الأسد بيمينه ، والنعامة بشماله ، ويقول : أتأخذ صيد هانئ بن مسعود ؟ ثم وضع النعامة على الأرض ومكن يده الأخرى من الأسد وجلد به صخرة كانت هناك فخلط عظمه بلحمه، ثم تناول سلاحه وركب جواده وقال لمازن : من أنت ؟ وإلى أين تريد ؟ إن كنت عابر سبيل فخذ ما يكفيك من الزاد، وإن أردت المقام فتعال معى إلى قومى وانزل عندى مكرماً ، فقال مازن : لست وحدى ، ولكن معى خمسين فارساً ، ونحن نبحث عن رجل طلبه النعمان نائب كسرى ، فقال : وما سبب ذلك ؟ فقص عليه رؤيا النعمان وما سمعه من تأويلها ، ثم قال : وإنى لأظنك هانئ بن مسعود ، فتبسم هانئ ورجع فى صحبة مازن إلى عنترة؛ فلما رآهما قال لأخيه : ما أشبه هذا الفارس بالذى وصفه النعمان ! ! فإن كان اسمه هانئ بن مسعود فقد فزنا بما أردنا ؛ فقال مازن : إنه هو ، وحدثه بما رأى منه ، فسلم عليه عنترة واحتضنه وقبله ، ثم جلس وأعاد عليه عنترة حديث النعمان ورؤياه ، فتبسم هانئ وقال : إن هذا الحديث عجيب ، لأنه وافق مأرباً لى عند النعمان ، فقالوا : وما هو ؟ فقال : إن لى ابنة عم اسمها ليلى ، وقد أردتها لنفسى زوجة ، وتعلمت

هانئ بن مسعود وقد أمسك الأسد بيمينه والنعامة بشماله

الفروسية من أجلها حتى فقت الأبطال ، وأسرت سبيع بن الحارث الملقب بذى الحمار ، وافتدى نفسه منى بمال كثير ، ولما خطبتها من أبيها رضى بى ولكنه كلفنى مهراً ثقيلاً ، وهو ألف ناقة عصفورية من نوق النعمان نائب كسرى ، فجعلت أفكر وأدبر : كيف أصل إلى النعمان ؟ ! وكيف أحصل منه على هذه النوق ؟ ! فسمعت هاتفاً يقول : لا تجزع يا هانئ بن مسعود فقد كتبت لك السعادة ، وعما قليل يدعوك النعمان لتذهب إليه فى فرسانك وتخلصه من ورطته ، وتكشف عنه كربته ، ثم يحكمك فى ماله ، وحينئذ تأخذ من نوقه ما تشاء . فعجب السامعون وقالوا : ما أجمل هذا الاتفاق ! وقال هانئ : ولكنى أرى لغتكم حجازية ، فكيف تكونون رسلا للنعمان ؟ فقال عنترة : إن لغتنا حجازية لأننا من بنى عبس وعدنان ، وقد جمعنا بالنعمان البيت الحرام . وهناك قص رؤياه التى أولها سطيح الكاهن ، وإن أردت زيادة فى معرفتنا فأنا عنترة بن شداد ، وهذا أخى ، وهؤلاء بنو عمى . وأما رسل النعمان إليك فقد انتشروا فى الحلل والقبائل يبحثون عنك ، فما سمع هانئ اسم عنترة حتى نهض وقبله بين عينيه وقال : أشرقت أرضنا بك ، ولقد كنت أطرب حين أسمع الحديث عنك ، وأشتهى أن أراك ، فأنت غرة فى جبين الدهر ، وكأن الحسام والرمح لم يخلقا إلا ليديك ، فشكره عنترة وأثنى عليه ، وقال هانئ : إنى لأعجب للنعمان إذ يطلبنى ناصراً له وأنت معه ، فقال عنترة : إنك

رجل كريم شجاع ، تغيث الملهوف ، وتنصر المظلوم ، وقد أراد الله لك
الخير ، فهيأ لك أسبابه ، فاحمد الله يزدك فضلاً ونعمة . ثم أقبلت عليهم
إذ ذاك فرسان النعمان بعد أن تعبوا فى البحث عنه ، فعرفهم عنترة به
ففرحوا واستبشروا ، وأعادوا على سمعه ما حكاه عنترة وأخوه مازن ، فأخذهم
هانئ إلى داره ، وأما عنترة فإنه استأذن ليرجع إلى الديار ، فإنه لا يزال
مشغولاً مفكراً فى ابنه الأسير . وأما فرسان النعمان فإنهم أقاموا عنده سبعة
أيام يتقلبون فى نعمه وكرمه ، ثم استأذنوه فى الرحيل فأذن لهم ، واختار هو
خمسين من أبطال قومه وسار بهم فى صحبة الرسل إلى النعمان حتى وجد
معركة حامية ، فتبينها فوجدها بين النعمان وجيش خداوند بن كسرى ،
وكان إياس قد هزم الفرسان الألف وأخذ الحريم والعيال ، فخاض هانئ
بسيفه ورجاله من خلفه يحمون ظهره ، فجعل رجال إياس يقعون صرعى
بين يديه ، فهذا قتيل ، وهذا جريح ، وهذا هارب ، وهذا يصيح
مستغيثاً وإياس ينادى فيهم : أن اثبتوا واصبروا ، فلا يسمعون له نداء .
فأخذته الحمية وزج بنفسه فى الميدان فأمسكه هانئ بيده وناوله إلى جماعة
من أصحابه فكتفوه وقيدوه ، وخلص الحريم والعيال ، وجعلهم فى مأمن من
الأعداء ، ثم انقلب هو وصحبه إليهم ، فهزموهم شر هزيمة ، وكان الليل
قد أقبل فسكتوا عن القتال ، واجتمع النعمان بهانئ ففرح به وقبله ،
وحكى له طمع خداوند فى ابنته وأخته ثم فى زوجته ، ورؤياه فى المنام ،

وقال : وإنى لأحمد لك هذه الهمة العالية ، وأحفظ لك عندى خير الجزاء ؛
فقال هانئ : وسوف ترى فى الصباح ما أفعله بهؤلاء القوم الظالمين . وبلغ
النعمان أن حاجب الملك جمع الأسرى وعزم على قتلهم فى الصباح فقال
النعمان لهانئ : إن حاجب الملك سيقتل الأسرى فى الصباح فماذا نفعل ؟ !
فقال : أحضر إياس بن قبيصة وقل له : إما أن تفدى نفسك بأسرانا وإما
أن تقتل ، فإن حاجب الملك قد عزم على أن يقتل أسرانا غداً . فلما
أحضره وأنذره بذلك قال له : اصبر علىّ قليلاً حتى أبعث إلى حاجب
الملك بما أردت وأحمله على تنفيذه . فصبر عليه كما طلب ، وأرسل إياس
إلى حاجب الملك يقول له : إن النعمان أحضرنى بين يديه وقال كذا كذا
فلا تقتل الأسرى وأطلق سراحهم أجمعين ، واعلم بأنك إن قتلتهم قتلونى ،
وحينئذ يخرج عليك بنو طيئ وتقع الفتنة فى جيشك ، وتكون سبباً فى
هزيمته وقتلك ، ولكن إن أنت أطلقتهم أطلقونى من أسرى وجئت إليك ،
وإذ ذاك نجمع جموعنا ونحمل عليهم حملة صادقة عنيفة حتى نقطع دابرهم .
فلما ذهب رسوله إلى حاجب الملك وبلغه أحضر الأسرى جميعهم بين يديه
وأطلقهم ، فرجعوا إلى النعمان فرحين ، وأحضر النعمان هانئاً وأطلقه وفاء
بوعده ، وانتظر الفريقان صباح الغد ليكون ما يكون .

بدأت معركة الصباح والحماسة بادية فيها من الفريقين ، وبدا هانئ
ابن مسعود فى الأعداء كأنه ملك الموت لا ينزل فى ناحية من الجيش إلا

دمرها ، فخرج إليه نائل حاجب الملك بعموده فابتدره هانئ وقتله ، وخاف إياس بن قبيصة أن يقتل مثله أو يؤسر ثانية فلا يجد وسيلة لخلاصه ففر وفر معه رجاله ، ورأى جنود خداوند حاجبه مطروحاً على الأرض قتيلاً فهربوا حيث هرب إياس ، وبذلك انقشعت الغمة عن النعمان ، وانتصر على أعدائه ، وارتحل بهم هانئ إلى ذى قار فى دياره . وأقاموا عنده آمنين ، وهناك أرسل إلى القبائل وأخبرهم بما وقع له من خداوند ، وطلب إليهم أن يرسلوا إليه الجنود استعداداً لمعركة أخرى ربما وقعت .

* * *

أما عنترة فإنه عجل بالرجوع إلى بنى عبس ليطمئن على ابنه الأسير ، فلما قرب من الديار رأى قبراً جديداً فوقف يبكى أمامه ويقول : هذا قبر مقرى الوحوش ، فقال أصحابه : ومن أعلمك هذا ؟ فعسى أن يكون حيًّا لم يمت ! فقال : إنه هو ، والدليل على ذلك أن هذا العشب الأخضر النابت بجوار قبره سيذبل ويذوى سريعاً إذا ما فارقت قبره . ثم تركه وسار ، وتأخر جماعة من أصحابه فوجدوه قد ذوى وذبل ، وأدركوا عنترة وقالوا : لقد صدقت يا أبا الفوارس ، فإن العشب قد ذبل ساعة أن فارقت القبر .

١٤

أعلن البشير فى بنى عبس قدوم عنترة وصحبه فخرجوا لاستقباله ، وكان فيهم ميسرة ابنه فقالوا : هنئت بهذا القدوم لأنك رأيت فيه ابنك ميسرة ، ثم تقدم إلى أبيه فضمه أبوه إلى صدره . وقال : هذا صحيح وقد أخبرنى به سطيح الكاهن بمكة ، ولكن من أنبأكم أنتم ؟ فقالوا : أمه مهرية وهى عندنا الآن وقد ضربنا لها ولابنها سرادقاً كبيراً فخماً ، وقال شيبوب : هذه مهرية التى سبيناها فى ديار بنى دارم . عند ما سرنا لنخلص الأبجر من لقيط بن زرارة ، وكانت لك ، ثم أعتقت ابن عمها وزوجته إياها إشفاقاً عليه ورحمة ، فقال عنترة : إن لله حكماً قد لا تهتدى إليها العقول ، ثم سأل عن مقرى الوحوش فقيل : مات فى الطريق ، فقال : لقد أنسانى حزنى عليه فرحى بميسرة ، ولكن الأمور تجرى بقضاء الله وقدره ، ثم أحضر ابنه سبيع اليمن وقبله ومنحه الهدايا . وقال له : لك ما تشاء من كل ما أملكه ، وفرح الملك قيس بقدومه . وحدثهم بما كان من النعمان وهانئ بن مسعود ، ولما استقر فى منزله أحضر مهرية وسألها عن ابنه ميسرة وما جرى لهما فقالت : إنك رجعت من ديار بنى دارم ، ولقيت ابن عمى فوهبتنى له ، وأمرته ألا يرجع بى إلى الديار حتى لا

يأخذونى منه ، فاستمع لنصحك وسار بى إلى اليمن ونزل بى على بنى سحاب ، فأقمنا فيهم حتى وضعت ابنك ميسرة ، ولما وجده أسود اللون ، ارتاب فى أمره وسألنى عن حقيقته ، فصدقته وحكيت له قصة أسرى ، وأنى أقمت معك فى الوادى ، فقال : يا ابنة العم ، ما كنت إلا مغلوبة على أمرك ، وأخشى أن يكون هذا الولد لنا مثار العار والفضيحة ، ولولا أن قلبك لا يطاوعك لقتلته ، ويحسن بنا أن نرحل إلى قوم آخرين ، وإن سألنا أحد عن هذا الولد قلنا : إنه ابن أمة كانت لنا وماتت . ثم رحلنا ونزلنا على بنى بشر ابن جهينة ، وأقمنا فيهم أعواماً ، ثم خرج زوجى فى بعض الغزوات ومات ، وكفلت أنا ابنى ميسرة حتى كبر وبلغ مبلغ الرجال وكان فى الشجاعة والفروسية بطلا لا يرام ، ثم رأى أسماء بنت خداش فأحب أن يتزوجها وهنا بدأت قصته معها التى عرفتها والتى انتهت بلقائنا ، وكنت قد عرفت أنك أسرته فجئت إلى دياركم وأخبرتهم أنه ابنك خوفاً عليه أن تقتله وأنت لا تعرفه ؛ فأمرها أن تقيم فى الديار ، وأن ينقل إليها جميع ما تحتاج إليه من شئون المعيشة ، وأن تعيش فى سعة وهناءة .

ودخل مجيد على عنترة فى الصباح ورجا منه أن يعينه على الزواج من أسماء فوعده بذلك وطمأنه ، وبعد أن شاور عنترة الملك قيسا فيها زفت إليه واستراح . أما ميسرة فلا يزال قلبه مشغولا بها ، ولكنه كظم أمره فى نفسه حياء من أبيه ، وقد يكون لما كظمه فى نفسه آثار تظهر فى الأيام القادمة .